بداية فترة الحملات الطويلة في الغرب

بعد أن عاد إبراهيم بَاشَا إلى إسطنبول، بدأت الاستعدادات لعملية عسكرية جديدة ضد الغرب. وكان هو الذي يخطط للحملة، وصار يتمتع بتأييد السلطان سليمان بعد أن قضى على منافسيه، وقد حان الآن وقت فتح جبهة حرب كبيرة ضد العالم المسيحي. فعرّف السلطان سليمان نفسه على أنه سلطان يحيي الجهاد ضد المسيحيين ليخضعهم لإدارته، وبهذا يغدو السلطان سليمان محورًا رئيسيًّا في سياسة العالم؛ فقد تحمل مسؤولية هذا الهدف السامي الذي يمثل هجمة مرتدة من العالم الإسلامي ضد الحملات الصليبية، وقام هو وإبراهيم بَاشَا برسم خطط الحملة، وتنص هذه الخطة على أن بلاد المَجَر هي الهدف الرئيسي، فالمَجَريون هم القوة الأكبر التي واجهت العثمانيين منذ أن وطأت أقدامهم الرُّومَلِي في أوروبا.

وانتهى الصراع بانتصار العثمانيين على المَجَر الذين كانت البابوية تقودهم وتحركهم كالدمية في حربهم على العثمانيين. وهكذا أعطى السلطان سليمان عقب جلوسه على العرش أولوية لفتح أوروبا ورأى أنها الساحة الأنسب للتوسع، فرغب في فتحها، وعقد العزم على فتح بَلْغِرَاد في حملته الأولى.

كانت بَلْغِرَاد في الحقيقة موقعًا مهما للغاية بالنسبة للأتراك. فلو فتحت لغدت قاعدة العسكرية للعثمانيين تسهل لهم الزحف إلى المَجَر.

ولما فتحت قلعة بَلْغِرَاد صارت حِمىً للمجاهدين الأتراك فقاموا فورًا بشن غارات على قلب أوروبا، كما ظهرت مشكلات عديدة على الحدود في مدة خمس سنوات عقب فتح بَلْغِرَاد، وحتى حملة "مُوهَاجْ (*Mohaç*)"؛ فقد بدأت الصراعات الشديدة بين "البوياريين"[٣٣] في "الأَفْلَاقْ (*Eflâk*)" التي كانت تؤدي

---

(٣٣) البويار: زمرة نبيلة/عالية في إدارة الدولة، وفي المجتمع في بلاد السلاف، ولا سيما في روسيا ومولدافيا (بوغدان)، وبوخارست (أفلاق)، وترانسيلفانيا (أرْدَل). (المترجم)

الجزية للدولة العثمانية و"القويفوديين"(٣٤) الذين أرادوا الحصول على السلطة، واضطر العثمانيون إلى التدخل في هذه الاضطرابات.

دعا الطرف المظلوم في الأفلاق إلى نجدتهم فصدر قرار الديوان الهمايوني بإرسال أمير السَنْجَقْ محمد بَكْ ليعيد الأمن والنظام، وقد نجح في تحقيق الأمن لحدود "لهستان" (بولندا) و"أَرْدَل (*Erdel*)"(٣٥) لفترة من الزمن. وبالإضافة إلى ذلك عين أمير الإفلاق "رادو" الذي لجأ إلى العثمانيين وكان له نفوذ كبير بين البوياريين في منصب الولاية (على الرُّومَلِي والبلقان) بشرط دفع جزية ١٤٠٠٠(أربعة عشر ألف) أوقية ذهبية.



حليفان بفرشاة "تسيانو واسيللي (*Tziano Vecellia*)": "فرانسوا" ملك فرنسا المأسور والسلطان سليمان

(٣٤) فويفودا: يعني القائد أو الأمير في لغة السلافيين في فايفودي. وقد كان ملوك هذه البلاد يُعرفون باسم "فويفودا (*Voyvoda*)" قبل أن يُلحق العثمانيون بوخارست ومولدافيا إلى أراضيهم. واستمر استخدام المصطلح نفسه للولاة الذين يعينهم السلطان على ولايتي مولدافيا وبوخارست في عصر الدولة العثمانية. وكان الحكام الحاملون هذا اللقب (فويفودا) يساوون أمراء السنجقات من حيث الدرجة في الهيكل الوظيفي للدولة العثمانية. وأُطلق هذا الاسم على الإداريين المسيحيين الحكوميين في كل من الرُومَلي والأناضول. (المترجم)

(٣٥) غرب رومانيا حاليا. (المترجم)

ومن جانب آخر كانت تقع بعض الأحداث على الحدود والصراعات الصغيرة على شواطئ الطُونَة (الدانوب). واستهدف المغيرون بقيادة "ميخال أوغلي فرهاد بَكْ" الأراضي الواقعة بين نهري "دراوا (*Drava*)" و"صَاوَا (*Sava*)" واستولوا على الكثير من الغنائم. ولقد انهزم هؤلاء المغيرون أثناء هجوم قاموا به على نواحي "سِيرَمْ" من منطقة "شواش انثيمتر (*Szavaszentdemeter*)". وأرسلت رأس قائدهم فرهاد بَكْ الذي وقع أسيرًا إلى ملك المَجَر من قِبَل قائد (ثغر) المَجَر القسيس "بول توموري (*Pol Tomori*)" (١٥٢٣م). وعقب ذلك قام المغيرون التابعون لـ"خُسْرَوْ بَكْ" و"بَالِي بَكْ" بالهجوم علي هذه المنطقة وحاولوا الاستيلاء على "يَايْجَا (*Yayça*)" إلا أنهم لم يتمكنوا، واضطروا إلى الانسحاب بعد أن وصلت الإمدادات من "كريستوف (*Kristof*)" هو قونتو "فرانجيبان (*Frangipan*)" بقوة قوامها ستة عشر ألف جندي.

وغدت المناوشات الحدودية وغارات المجاهدين تمهيدًا لحملة المَجَر، وخرج السلطان سليمان في هذه الحملة لعوامل عديدة: منها تآمر البابوية والمَجَر ولهستان (بولندا)، وأهمها دور فرنسا في الحرب، فقد زادت في السنوات الأولى من سلطنة السلطان سليمان الصراعات والخلافات بين فرنسا وآل هابسبورج الذين حكموا في الإقليم الذي يشمل ألمانيا وإسبانيا. وإن ترشيح فرانسوا ["فرانسيس (*François*)"] الأول ملك فرنسا نفسه في منصب إمبراطور ألمانيا كمنافس لـ"كارل (*Karl*)" [كارلوس (*Carlos*) الخامس، تشارلس كوينت (*Charles-Quint*)] من آلِ هابسبورج ـ انتهى بدخول هاتين الدولتين المتنافستين على حكم إيطاليا للسيطرة عليها بعد صراع شديد.

بعد فترة أصبح كارل الخامس ابن فيليب الأول "أرشيدوق" (حاكم) النمسا و"جوانا" الأولى ملكة كاستيليا (إسبانيا) ملكًا لأسبانيا مع والدته "جوانا" عقب وفاة فرناندو الثاني جده لأمه (١٥١٦م). ورشح نفسه لمنصب الإمبراطور عقب وفاة جده لأبيه ماكسيميليان الأول إمبراطور ألمانيا وروما المقدسة (١٥١٩م). وتم انتخابه إمبراطورا بعد أن اشترى أصوات الأمراء الألمان ضد فرانسوا

الأول ملك فرنسا الذي نافس وصارع في هذا السبيل. وقد اعتلى عرش ألمانيا في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٥٢٠م بعد شهر من اعتلاء السلطان سليمان العرش العثماني. ولما أصبح كارل الخامس إمبراطورا وصار يتصرف كأنه الحاكم الوحيد للعالم المسيحي، عمل على توحيد العالم الكاثوليكي تحت حكمه. وكان أكبر منافس له في السيطرة على العالم هو السلطان سليمان الذي رأى نفسه الحاكم الوحيد في العالم. وفي خلال المرحلة التي شهدت سلسلة من الأحداث والتي بدأت بالاستيلاء على بَلْغِرَاد في سنة ١٥٢١م سوف يترك هذان الحاكمان بصمتهما في الأمور السياسية التي ستقرر مصير أوروبا.

وكان لسيطرة العثمانيين على المَجَر ولحملاتهم في قلب أوروبا دور محوري في بناء أوروبا الحديثة. وكان السلطان سليمان في هذه السنوات الأولى شغوفًا للغاية بمعرفة وضع كارل الخامس حتى إنه حاول بعد حصار بَلْغِرَاد الحصول على معلومات من السفراء البنادقة بشأن وضعه وقوته. ولكن لم تكن لديه معلومات عن فرنسا، ولم يكن يتصور في البداية أنه سيجد حليفًا له في أوروبا. ولكن الأحداث المتطورة غيرت هذا الوضع. فكان المذهب البروتستانتي الذي تزعمه "مارتن لوثر (*Martin Luther*)" والمؤمن بحاجة المسيحية في أوروبا لإصلاح جاد قد توصل إلى نتائج خطيرة، وأسهم في الصراع الناشب بين فرانسوا الأول وكارل الخامس على الآمال والأطماع التاريخية في إيطاليا.

انهزم فرانسوا الأول في منطقة تسمى" بافيا (*Pavia*)" في ٢٥ شباط/فبراير بسنة ١٥٢٥م ووقع أسيرًا في يد كارل الخامس ونقل إلى "مدريد (*Madrid*)" حيث تم حبسه هناك. بحثت فرنسا عن حليف لها إثر أسر فرانسوا الأول، ولكن لم يعدها أحد بالمناصرة سوى العثمانيين، كتبت والدة فرانسوا الأول، نائبة السلطنة (الوصية على العرش) دوقة "آنجوليهم (*Angouléme*)" "لويز دي سافوا (*Louise de Savoie*)" خطابًا موجهًا إلى السلطان سليمان، وأرسلت سفيرًا إلى العاصمة العثمانية. عرضت نائبة السلطنة في هذا الخطاب على السلطان عقد

اتفاقية تنص على كسر نفوذ إمبراطورية روما- ألمانيا المتزايد خطرها تدريجيا، وصد الخطر الذي نتج عن أسر وحبس "شارلكان (*Şarlken*)" ملك إسبانيا لابن "فرانسوا (*Fransuva*)" في معركة "بافي (*Pavi*)" وجاء في الخطاب ما يلي:

"أرجأت فك أسر ابني حتى الآن أملًا في إنسانية شارلكان، بيد أنه لم يقم بما تدعوه إليه إنسانيته التي بنينا عليها أملنا ورجاءنا بل أساء إلى ابننا وأهانه؛ وبناءً على هذا فإني ألتمس من جلالتكم وعظمتكم بصفة خاصة بأن تتفضلوا بإظهار فخامتكم بخلاص ابني وإنقاذه من قبضة ظلم عدونا وذلك بعظمتكم وجلالتكم المؤيدة والمصدق عليها من العالم".

وقد أرسل فرانسوا الأول شخصيًا خطابًا إلى السلطان مع خطاب والدته هذا. جاء فيه:

"إلى حضرة حاكم وسلطان البلاد والممالك من أنحاء العالم المعمورة، السلطان المعظم والخاقان المفخم الذي هو ملاذ جميع المظلومين أعرض على حضرتكم ما في القلب وهو أنه: عندما هاجمتم فرديناند الأول ملك المَجَر نجونا من السجن بفضلكم، وعندما هاجمتم شارلكان ملك إسبانيا ثأرنا منه وانتقمنا، أنت ملك الملوك جليل الشأن، فأنا أسير فضلك من اليوم فصاعدًا أي منذ تكرمك بالانتقام منه وهزيمته".

لم ينجح السفير الأول الذي كلف بإيصال الخطاب إلى السلطان، ولكن السفير الفرنسي الثاني "جون فرانجباني (*Jean Frangipani*)" الذي أرسل أواخر السنة نفسها نجح في الوصول إلى إسطنبول ومعه الخطابان المذكوران آنفًا أحدهما خطاب فرانسوا الأول والآخر خطاب والدته (١ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٢٥م).

عندما تلقى السلطان هذين الخطابين وعد السفير فرانجباني بأنه سيقوم بتقديم المساعدة الفعلية عن طريق القيام بحملة ضد المَجَر. وقام فرانجباني بتحريض السلطان بصورة دائمة خلال مدة وجوده في إسطنبول، وشرح له الوضع في أوروبا بالتفصيل وقال:

"الهجوم البري والبحري ضد كارل الخامس سينقذ الملك الأسير وإلا فإن كارل الخامس ستزداد قوته ويشتد ساعده بالمعاهدة التي سيعقدها معه الملكان (فرانسوا الأول ووالدته) مضطرين، وهكذا يغدو هو الحاكم الوحيد في أوروبا".

وبناءً على هذا أخذ السلطان سليمان رأي سفير البندقية وكتب خطابًا موجهًا إلى ملك فرنسا مؤرخ بـ"ربيع الآخر" سنة ٩٣٢هـ (١٥-٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٢٦م). وواسى السلطان فرانسوا بخطاب مشهور مفاده: أنّ الملوك قد يتعرضون لمثل هذا في أثناء الحرب، فهذا أمر وارد، ثم أبلغ السفير أيضًا بأنه سيتحرك من جبهتين ضد كارل الخامس على أن تكون إحداهما إلى السواحل الإيطالية والأخرى إلى المَجَر:

"... أنا سلطان السلاطين وكبير الملوك أنا الذي أتوج الملوك ظل الله في الأرضين، أنا سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والرُّومَلِي والأناضول وقَارَامَانْ والروم وولاية "ذُوالْقَادِر" و"ديار بكر" وكردستان وأذربيجان ودمشق وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وإن هذه الأراضي الشاسعة قد فتحها أبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة رحمهم الله، وكم من البلاد افتتحتها بسيف الظافر المنصور.

من السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان إلى فرانسيس ملك ولاية فرنسا:

حمل إلينا رسولكم فرانجباني رسالة منكم وأخبارًا شفوية تفيد بأن عدوكم استولى على بلادكم، وأنكم الآن محاصرون، وتستنجدون لخلاصكم، وكل ما ذُكِر عُرِض على أعتاب عرشنا السلطاني، وأحطت به علمًا، فلا عجب أن يؤسَر الملوك فلا تحزن ولا تهتمّ، فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ونحن أيضًا سالكون على طريقهم وفي كل وقت نفتح

البلاد والقلاع الصعبة الحصينة، وخيولنا ليلًا ونهارًا مسروجة وسيوفنا مسلولة، فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته وأما الأحوال والأخبار الأخرى فسيبلغكم بها رسولكم".

عندما عاد السفير الفرنسي إلى مدريد أخبر فرانسوا الأول الذي تخلص من الأسر في تلك الأثناء بوعد السلطان، فأرسل فرانسوا أيضًا خطابًا إلى السلطان عبّر فيه عن شكره وامتنانه، ولكن بينما كان فرانسوا يحاول كسب العثمانيين لصالحه واستمالتهم إليه من ناحية إذ استحسن من ناحية أخرى إخفاء عقده معاهدة مع العثمانيين حتى لايفقد كرامته وسمعته لدى الدول الأوروبية. حتى إن توضيح الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا وكشفه جوهر حقيقة هذه المسألة لسفراء فرديناند في إسطنبول فيما بعد يظهر أن السلطان لم يكن يعلم أن فرانسوا أخفى وعد المساعدة.



منمنمة تصوّر السلطان سليمان العظيم في حرب "موهاج"، بريشة الرسام نقاش عثمان رسّام البلاط السلطاني في لوحته هُنَرْ نامَه، ١٥٤٨م

حملة المَجَر:

معركة ميدان مُوهَاج

للحملة على المَجَر عاملان رئيسيان:

أولهما: نصائح فرنسا وتوسلاتها، فقد كان لها أثر بيّن في التحضير لحملة حتمية ضد المَجَر بعد أن سبق تأجيلها جراء اضطرابات وقعت في الشرق.

ثانيهما: كان لما أبداه السلطان سليمان وإبراهيم بَاشَا من عزم وحزم وخبرة في الاستفادة من الظرف الراهن دور مهم في هذا الأمر.

علاوة على ذلك كان السلطان سليمان يريد أن يظهر لرعيته أنه سينجح في الأعمال الكبيرة نجاحًا باهرًا بمساعديه الجدد.

كان من الواضح أنه سيعزز قوة نجاحه أكثر بهذه الحملة الجديدة. وسيكون العثمانيون قد أزالوا عقبة بينهم وبين آل هابسبورج ولم يعد شيء يحول بينهم وبين أبواب "فيينا (*Viyana*)" المسمّاة بـ"التفاحة الحمراء (*Kızıl Elma*)"(٣٦) عند الأتراك.

ومن ناحية ثانية لم يكن وضع المَجَر الداخلي في تلك الأثناء مرضيًا، كان ملك المَجَر ينتسب إلى أسرة "ججالون (*Jegallon*)" الحاكمة البولندية الأصل، ومن أقرباء كارل الخامس.

كان أخو كارل الخامس والذي تولى إدارة إقليم النمسا قد تزوج بـ"ماري (*Maria*)" شقيقة "فرديناند"(٣٧) في سنة ١٥٢١م. وكان شابًا يافعًا، يلفت النظر بمظهره الخارجي العجيب وهيئته الغريبة لكن لا يبدو أنه ناضج وقادر على إدارة الأزمة في المَجَر. وأصبح وجهًا لوجه مع الانقسام الداخلي بسبب هذه الروابط العائلية بين المَجَر وآل هابسبورج، كما كانت إدارة "لايوش (*Layoş*)" الثامن السيئة وحركات الإقطاعيين بدأت تزلزل المملكة وتزعزعها.

كما أن زابوليا أمير "أَرْدَل (تراسلفانيا) كان يترأس حركة وطنية ضد الملك ونفوذ آل هابسبورج.

كان قرويو المَجَر الذين رزحوا تحت نير الإدارة السيئة قد انضموا إلى حركة البروتستانت بغرض إظهار استيائهم. أضف إلى ذلك أن جيش المَجَر

---

(٣٦) التفاحة الحمراء هي الغاية المنشودة: المُثُل أو الأحلام التي تتباعد كلما خضعت للتأمل بالنسبة للأتراك ولاسيما للأتراك الأوغوز (*Oğuz*) في علم الأساطير التركية، ولكن جاذبيتها تزداد بقدر تباعدها. وهي ترمز لهدف وغاية معينة بالنسبة للدول التركية. وكانت ترمز للتقدم الدائم في إطار السير التاريخي. وقيل بعد فتح إسطنبول إن الغاية المنشودة هي روما. (المترجم)

(٣٧) فرديناند: إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، عاهل نمساوي من آل هابسبورج. وهو أول دوق للنمسا في الفترة من ١٥٢١م إلى ١٥٦٤م. كما حكم بوهيميا والمَجَر بعد وفاة لويس الثاني ملك بوهيميا والمَجَر بين عامي ١٥٢٦-١٥٦٤م. (المترجم)

في حالة تشتت وتشرذم حتى إن الكثير من جنود المَجَر الذين لم يستطيعوا أخذ رواتبهم لجأوا إلى بَالِي بَكْ أمير المهاجمين العثمانيين. وهكذا كانت هذه الاضطرابات الداخلية في المَجَر، بجانب الأسباب التي شرحتها آنفًا، قد دفعت السلطان سليمان إلى القيام بالحملة.

بحلول فصل الشتاء بدأ الجيش العثماني بالإعداد للحملة. وأرسل السلطان الأوامر إلى أمراء سَنْجَقْ "الرُّومَلِي" في شهري كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير سنة ١٥٢٥م، وأمر بتجميع القوات كلها إبان فصل الربيع في صحراء صُوفْيَا، وأن يستعدوا للحملة. وبالإضافة إلى ذلك تم إرسال الخطابات إلى بَهْرَامْ بَاشَا أمير أمراء الأناضول و"سَعَادَةْ كِيرَايْ (*Saadet Giray*)" خان القِرْم من أجل انضمامهم إلى الحملة. وقد أسند السلطان منصب القائد الأعلى للحملة إلى الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا الذي عاد من مصر، وأوصى "كُوزَلْجَة" قاسم بَاشَا وشيخ الإسلام كمال بَاشَا زاد بحماية إسطنبول والمحافظة عليها.

غادر السلطان سليمان إسطنبول في ١١ رجب سنة ٩٣٢هـ (٢٣ نيسان/أبريل ١٥٢٦م) مع جنود "القَابِي قُولُو" وثلاثمائة مدفع. وقد منع السلطان الجيش العثماني الذي بدأ يسير في نظام وانضباط شديدين من الدخول في الحقول المزروعة ومراعي الحيوانات أو الاستيلاء على الحيوانات التي في أيدي الرعايا، وفرض عقوبة على من خالف شيئًا من ذلك.

وبناءً على الأوامر السابقة انضمت القوات الجديدة المتأخرة إلى الجيش أثناء مسيره، وممن انضم إليه في صُوفْيَا أمير أمراء الأناضول بَهْرَامْ بَاشَا وقواته، وتحمل الجيش العثماني في طريق أَدِرْنَه - صُوفْيَا - نِيشْ نحو بَلْغِرَاد مشاق كثيرة سببها الطين والوحل، وعندما وصل الجيش إلى صُوفْيَا تقدمت قوات إبراهيم بَاشَا وحدها لتكون طليعة العملية العسكرية، وقامت بجمع المعلومات حول الطريق والبيئة لإخطار الجيش بها فورًا، كانت هذه القوات المتقدمة التي تتشكل من جنود الرُّومَلِي تحت قيادة إبراهيم بَاشَا وألفين من الجنود الإِنْكِشَارِيَّة تزحف نحو "بتروأردلين (*Petervaradin*)" الواقعة على شاطئ نهر الطُونَة.

عـلاوة على ذلك كان يتبع الجيش العثماني أسـطول صغير في نهر الطُونَة مكون من سفن وزوارق أيضًا.

غادر السـلطان سـليمان إسـطنبول متجهًا إلـى بَلْغِرَاد في رحلة اسـتغرقت شـهرين ونصـف الشـهر وقضـى عيـد الفطـر هنـاك، وحينمـا كان السـلطان في هذا المكان كانت قوات الطليعة بقيادة إبراهيم بَاشَـا مشغولة بمحاصرة قلعة "بترواراوين" وفتحت هذه القلعة بعد حصار العثمانيين لها مدة اثني عشـر يومًا، ودخلهـا الجنـود العثمانيـون من ثغرات عـن طريق حفر الأنفاق قرب الأسـوار (٢٧ يوليـة ١٥٢٦م). وأقيمـت الخيمـة السـلطانية بعـد فتح القلعة على سـهل بالقـرب مـن القلعة، وانعقـد الديوان الهمايونـي وقام الصدر الأعظـم والوزراء وأمراء الأمراء وأمراء السـناجق بتقبيل يد السلطان، وكرّم السلطان كل أمير يزيد إقطاعه على أربعمائة ألف أَقْجَه بثلاثين ألف أَقْجَه ودُرَّاعة، وأما من يقل راتبهم عـن ذلك فمنح كل واحد عشـرين ألـف أَقْجَه ودُرَّاعة. وفي هـذه الأثناء وصل الخبر إلى السـلطان بأن أمراء البُوسْـنَة الذين دخلوا أراضي "سِيرَمْ" فتحوا بعض القلاع في هذه الأراضي.

وتقدم الجيش العثماني الذي تحت إمرة السلطان بمحاذاة نهر الطُونَة ووصل أمام قلعة "إيلوق (*İlok/(Uyluk-Ujluk)*)" وأمر السلطان بمحاصرة القلعة وحذّر مـن حـرق القرى في هذه النواحي ونهبها وتخريبها. واسـتولي الجيش العثماني على القلعة بعد حصار دام سبعة أيام. وتحرك الجيش عبر نهر "درافا (*Drava*)" بعد الاسـتيلاء على هذا المكان، وفتحت قلعة "أوسـك (*Ösek (Osseg, Esseg/ Eszék)*)" بلا مقاومة، وأُعلن في الجيش أنّ السلطان يرغب في فتح بُودِينْ.

تقـدم الجيـش فـي اتجاه الشـمال وعبر في يومين جسـرًا بُني في غضون خمسة أيام على نهر "درافا" ثم هُدِم في (٢٣ آب/أغسطس ١٥٢٦م). وهكذا بدأ الجيش العثماني يقترب أكثر من ميدان المعركة.

وفـي تلـك الأثنـاء تلقـى المَجَريون عـن طريق جواسـيس "بـول توموري (*Pol Tomori*)" خبـر شـروع العثمانييـن فـي اسـتعدادات الحملة ضـد المَجَر.

وبدأ ملك المَجَر لايوش الثاني استعدادات الحرب وطلب المساعدة من دول أوروبا. ولكن تُرِك المَجَريون وشأنهم، بسبب تحالف فرنسا وإنجلترا والبابوية والبندقية وميلانو ضد الإمبراطور "كارل الخامس". فما استطاع "شارلكان" ولا أية دولة أوروبية أخرى مساعدة المَجَريين المستغيثين، وعقد مجلس المَجَر اجتماعًا طارئًا، وقرر في نهايته أن يترأس الملك قيادة الجيش.

وتحرَّك الجيش المَجَري الذي يمتلك أقوى فرسان مدرّعة في أوروبا من "بُودِينْ" في ٢٠ يولية تحت قيادة ملكهم، وفي السادس من آب/أغسطس وصلوا منطقة "تولنا (*Tolna*)"، وهي مستنقع سبخ، وكان القائد الأعلى "ناندورا إستيفان (*Nandor İstvan*)" ينتظرهم هناك؛ فحاولوا صد تقدّم الجيوش العثمانية على بعد أربعين كيلو مترًا شمال نهرِ "درافا" خطِّ الدفاع الطبيعي له.

وتقرر في اجتماع جرى هناك أن يسير "ناندورا" إلى "أوسك" ولكن لم يلتزم جنود المَجَر بهذا القرار فصار من الأنسب أن يتحرك الجيش كله، وفي تلك الفترة تم تنصيب قائد المَجَر "بول توموري" حامي حدود المَجَر مع الدولة العثمانية رئيسًا للأساقفة "كالوشا (*Kalocsa*)"، ووصل حينها إلى صحراء "مُوهَاجْ" أيضًا، وراح الجيش المَجَري يترقب وصول العثمانيين، علاوة على ذلك أمر "لايوش" ملك المَجَر حينما كان لايزال في الطريق "جان زابوليا" حاكم "أَرْدَلْ"، وحاكم الأفلاق بالتحرك تجاه العثمانيين. بيد أنه أرسل الأخبار فيما بعد من أجل الانضمام إليه بجميع قواتهما في أقصر وقت.

كان الجيش العثماني يستعرض قوته أثناء تقدمه ناحية الشمال، ومن أجل ذلك كانت فرقة منه تشعل الشموع أثناء مسيرهم، وكان بَالِي بَكْ أمير سَنْجَقْ "سَمَنْدِرَه" يتقدم أمام الجيش العثماني ويتبعه السلطان مع عسكر الرُّومَلِي والجنود الإِنْكِشَارِيَّة، ومن خلفهم فرسان البُوسْنَة بقيادة خُسْرَوْ بَكْ أمير أمراء البُوسْنَة، وأخيرًا وصل الجيش التركي إلى صحراء "مُوهَاجْ" في ٢٦ آب/ أغسطس. ولما شعر السلطان بتعب الجنود أمر بأن يستريحوا حتى الصباح ثم يبدؤوا المعركة مبكرًا، وفي هذه الأثناء أمر بعقد اجتماع لمجلس الدفاع وطلب

من قادة حرس الحدود وكبار الخبراء العسكريين المشاركة، ويرى المؤرخون العثمانيون أن هذه المباحثات جرت على النحو الآتي:

مَثل إبراهيم بَاشَا بين يدي السلطان بعد أن ثبّت حشود الرُّومَلِي وركزهم في أماكنهم. وأمر السلطان بإرسال الرقباء إلى قادة حرس الحدود ليدعوهم للتشاور. ومثل خُسْرَوْ بَكْ أمير أمراء البُوسْنَة قبل الجميع بين يدي السلطان، وطلب منه أن يصعد إلى مكان مرتفع. وبينما كان إبراهيم بَاشَا والوزراء الآخرون يقفون أمام السلطان إذ يسأل إبراهيم بَاشَا وهو يقف خُسْرَوْ بَكْ قائلا:

"أنتم أمراء الحدود يريد صاحب السعادة سلطاننا منكم المشاورة، هذه هي صحراء مُوهَاج، ولايوجد أثر من العدو بعد، فما هو الحل؟"

ويجيب خُسْرَوْ بَكْ على هذا السؤال قائلا:

"جلالة السلطان، نحن نتشاور مع عسكريين لهم خبرة في الحدود، فلا نقدم على شيء إلا بمشورتهم، وعندما تأمرنا نذهب إليهم ونتشاور ثم نبلغ جلالة السلطان بالنتائج".

ولما بلغ خُسْرَوْ بَكْ ما أمر به السلطان كلّف أحد رجاله بذلك قائلًا:

"اذهب بسرعة، وادعُ للتشاور كما أمر السلطان كلًّا من "قُوجَه آلاي بَكْ" (أمير قُوجَه آلاي) (*Koca Alay Bey*) و"قرة عثمان" و"محمد صوباشي (*Subaşı*)" و"عادل طاويجة (*Tavıca*)" و"جَرِيبَاشْ "بَالَابَانْ (*Balaban*)".

وفي تلك الأثناء حضر رجل مسن أشيب مقدام يطلق عليه "عادل طاويجة" وسلاحه على ظهره وخوذته الحديدية فوق رأسه ومعطفه المصنوع من اللباد على مؤخر سرج حصانه؛ فظن خُسْرَوْ بَكْ أنه جاء تلبية لدعوة السطان للتشاور. قال عادل طاويجة:

"فيم نتشاور؟ هل أمامنا حلّ غير الحرب؟ أرسلني أمير قُوجَه آلاي إليكم، وحشود العدو قد اقتربت، ارفعوا راياتكم وتقدموا، وحولوا دون الخطر المحدق بالجيش، وتحملوا المسؤولية".

ثم دفع حصانه، واستدار ورحل إلى فرقته؛ وسرعان ما أتى رسول كوجوك بَالِي بَكْ بالخبر: اقترب العدو منهم وهو يتقدم بحشوده من ممرات قريبة من صحراء مُوهَاجْ، وراياته تشاهَد على التلال والقمم بين حين وآخر.

وأقيمت خيمة السلطان فوق تل أطلق عليه تل "خُنْكَارْ (*Hünkar*)" (أي: تل السلطان). رفع جميع الأمراء راياتهم واقترب السلطان من هذه الرايات ودعا قائلًا وهو يذرف الدموع:

> "إلهي أنت القوي المتين، لاحول ولا قوة إلا بك، بيدك الأمر والنصر، إنك نِعم المولى ونِعم النصير، كن عونا لنا، فنحن ضعفاء أمة محمد ﷺ".

أما الجنود الذين شاهدوا السلطان وهو يتضرع إلى الله باكيًا تأثروا كثيرا وأقسموا بأن يضحوا بأنفسهم وأرواحهم من أجل السلطان. بدأ الجيش العثماني يستعد للحرب في هذا الجو الروحاني.

قام المَجَريون بتقسيم جيشهم إلى صفين وبدؤوا بالهجوم الأول في ٢١ ذي القعدة سنة ٩٣٢هـ (٢٩ آب/أغسطس١٥٢٦م)، وقسموا الصف الأول إلى قلب ويمين ويسار، أما الثاني ففي السّاقة وهو أربع فرق متتالية.

قرر السلطان تأجيل الحرب إلى اليوم التالي لكن الجيش المَجَري بادر بالهجوم الفوري، فهم أقوياء جدًّا واثقون من النصر بما لديهم من فرسان عليهم دروع سابغة.

قام "راسقاي (*Raskay*)" و"بطحاني (*Batthanyi*)" بالهجوم الأول للمجريين وفي إثره قام "توموري (*Tomori*)" و"طبيريني (*Perényi*)" بالهجوم الثاني. كانت هذه الهجمات شديدة للغاية. وبدأت معركة حامية الوطيس بين الطرفين. اشتدت هجمات المَجَريين ففتح لهم جنود الرُّومَلِي ثغرات على شكل أجنحة، فظن فرسان المَجَر أنهم حققوا النصر فحاولوا اقتحام قلب الجيش العثماني.

وكان الصف الثاني بقيادة ملك المَجَر "لايوش الثاني" يسير وراء الصف الأول، ولما توغل المَجَر بين جنود الرُّومَلِي أخذ "جنود الأناضول" يدفعون بهم نحو قلب الجيش حيث المدافع ورماة البنادق من فرقة الإِنْكِشَارِيّة.

وفي الوقت نفسه اتضح أنّ القوات التابعة لـ"خُسْرَوْ بَكْ" و"بَالِي بَكْ" قد أحاطت بالعدو فجأة وطوقته. وفي تلك الأثناء بدأ أيضًا إطلاق قذائق المدافع العثمانية المؤثرة، والتي أصابت أهدافها. وسببت هذه القذائف اضطرابات شديدة في صفوف الجنود المَجَريين وكبدتهم خسائر فادحة. واقترب ثلاثة وعشرون فدائيًا من فرسان المَجَر الذين توغلوا في الجيش العثماني - من المكان الذي يوجد فيه السلطان حيث أقسموا أن يقتلوه، وبالرغم من أنهم استطاعوا إصابة درعه بثلاثة أسهم إلا أنهم قُتلوا على الفور، وقتل قسم آخر منهم بطلقات بنادق الإِنْكِشَارِيّة. وبدأ المَجَريون الذين تفرقوا جراء إطلاق نيران المدفعية الشديدة وطلقات بنادق الإِنْكِشَارِيّة المؤثرة السريعة والمتوالية وعمليات تطويق القوات العثمانية لهم - بدؤوا - يهربون في ذعر ورعب، وقتل بعضهم بالسيف، وانغرس البعض الآخر في المستنقعات واختنقوا وغرقوا. وقتل من المَجَريين في هذه الحرب هذه ٢٠٠٠٠ (عشرون ألف جندي) و٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس. وفي أثناء عبور الملك لايوش النهر انجرف في مياهه وغرق، أما بعض قادة المَجَر الآخرين فقد قتلوا وقطع رأس قائدهم المشهور "بول توموري" ورفع على سنان الرمح ليراه الجنود.

وبعد الحرب تفقد السلطان سليمان ومعه الصدر الأعظم والوزراء ميدان المعركة، وأمر بدفن الجثث. وفي اليوم نفسه أقيمت احتفالات النصر في الجيش العثماني. وفي أثناء تفقد السلطان ميدان المعركة، رأى أمير قُوجَه آلاي تحت إحدى الرايات فأمر إبراهيم بَاشَا قائلا:

"استدع أمير الآي واسأله عن الوضع".

نادى إبراهيم بَاشَا أمير قُوجَه آلاي، وما إن وصل أمير قُوجَه آلاي مسرعًا سأله - إبراهيم بَاشَا - قائلًا:

" بحمد الله تعالى نجح صاحب السعادة سلطاننا في هذه الغزوة الكبرى ماذا نفعل الآن".

فأجاب أمير آلاي ملمّحا إلى وجوب الحملة على بُودِينْ:

"ياسلطاني لا تدع صغير الخنزير في مرقده ".

وإذا كانت القصة التي ذكرتها المصادر العثمانية سببًا للسير إلى بُودِينْ فإن السلطان سليمان بعد قضائه على الجيش المَجَري كان قد خطط للسير إليها، وكان لايفكر في البقاء كثيرًا هناك، لأنه أدرك صعوبة المحافظة على مكان بعيد إلى حد ما عن حدود الدولة، أقام السلطان ثلاثة أيام في صحراء مُوهَاجْ، وقلّد بمناسبة النصر الصدر الأعظم الطرز المزدانة (المرصعة) بالجواهر. وألبس الأمراء الخلع السلطانية، وبعد أن أمر بإرسال خطابات النصر إلى البلدان العثمانية أبلغ القادة والوزراء بالاستمرار في العمليات العسكرية، وبالإضافة إلى ذلك تم إرسال المهاجمين إلى داخل بلاد المَجَر. غادر السلطان سليمان "مُوهَاجْ" في ٢٦ ذي القعدة سنة ٩٣٢هـ (٣ أيلول/سبتمبر ١٥٢٦م) ووصل بالقرب من بُودِينْ في العاشر من أيلول/سبتمبر عام ١٥٢٦م، وفي أثناء الطريق كان ممثلو حكومة المَجَر قد قدموا مفاتيح المدينة إلى السلطان في موقع يسمى "فولد فار (*Földvar*)" ودخل السلطان المدينة في اليوم التالي. وكانت أرملة ملك المَجَر ونبلاء المَجَر وأشرافها قد تركوا المدينة قبل دخول الأتراك فيها.





منمنمتان من "سليمان نامه" تكملان بعضهما، وتُظهران موقعة موهاج الدائرة في ٢٩ أغسطس ١٥٢٦م

ولـم يصـب الشـعب بـأي أذى؛ لأن الجيـش العثماني منـع سـلب المدينة ونهبهـا. وقضى السـلطان سـليمان عيد الأضحى في هذا المـكان، وتم ترتيب الإحتفالات ووسائل التسلية والترفيه. وأمر السلطان ببناء جسر على نهر الطُّونَة في موقـع سـوق الحطب بالمدينة، فلما اكتمل عبره السـلطان مع إبراهيم بَاشَـا إلى ضفة "يشـته". واسـتقبل هناك وجهاء دولة المَجَر وتحدث معهم، ثم تجول مع إبراهيم بَاشَـا في المدينة، وبالرغم من أنه منـع تخريب المدينة وسـلبها إلا أنّ شـغبًا وعنفًا محدودًا وقـع في المدينة أدى إلى احتراق كنيسـة كبيرة وبعض الأحياء السـكنية، حزن السـلطان كثيرًا لهذا الوضـع، وأصـدر أمرًا" إلى إبراهيم بَاشَـا من أجل إطفاء الحريق والتدخل لإنهاء هذا الوضـع، ولكن لم يتيسـر هذا لأن الحريق كان يشتد وتزداد حدته.

عندما كان السلطان في بُودِينْ أقام في قصر الملك، وأمر بترتيب الاحتفالات ووسـائل التسـلية. ثم ذهب إلـى قصر الصيـد الخاص بالملـك واصطاد هناك، ثم طلب نقل جزء من أهل المدينة، فتم تسكين اليهود في "سَلَانِيكْ (*Selanik*)".

وغالبية المسيحيين قرب "يَدِي قُولَه (Yedikule)"، وفي خلال ذلك أمر السلطان بشحن خزينة الملك، وبعض الأشياء الموجودة في عتاده الحربي على سفن وإرسالها إلى إسطنبول. كان يوجد بين هذه الأشياء تماثيل من البرونز "هرقل (Herkül)" و"ديانا (Diana)" و"أبو للو (Apollon)"، وشمعدانان كبيران من البرونز وكتب "ماثياس كورفينس (Mathias Corven)" وقد تكدست التماثيل مع غنائم أخرى في "آتْ مَيْدَانِي (At Meydanı)" (أي: ميدان الخيل) أمام قصر إبراهيم بَاشَا. وكان الغرض من هذا عرض الغنائم التي تم الاستيلاء عليها على الشعب وبالتالي إظهار عظمة النصر.

وجاء أهالي إسطنبول وشاهدوا هذه الغنائم والأشياء بإعجاب ودهشة. ولكن استخدمت هذه التماثيل فيما بعد ضد إبراهيم بَاشَا من قبل معارضيه وخصومه. وظهرت عدة شائعات بشأن إبراهيم بَاشَا، واشتهر كثيرا هذا الشعر الذي قاله الشاعر "فغاني (Figânî)":

ولد في هذه الدنيا إبراهيمان:

أحدهما حطم الأصنام والآخر نصب الأصنام.

غادر السلطان سليمان "بُودِينْ" في ٢٤ أيلول/سبتمبر واتجه إلى إسطنبول، ورأى أن من المصلحة التنازل عن المدينة، لأن السيطرة والمحافظة عليها عسيرة لبُعدها عن حدود الدولة، ولم يرغب في العودة من الطريق الذي جاءوا منه، ووصل الجيش العثماني الذي تتبع شاطئ نهر الطونة إلى مدينة "سكدين" الواقعة على ضفة نهر" تيسّا (Tissa)". وتم الاستيلاء على هذا المكان بسهولة.

وصل الجيش العثماني الذي أسرع في السير بعد "سكدين (Segedin)"- أمام مدينة "باج (Baç)". قاومت المدينة العثمانيين، ومع ذلك وقعت القلعة تحت الحصار، وسقطت نتيجة الهجمات الشديدة التي تم القيام بها، ولكن سمح بالسلب والنهب بسبب هذه المقاومة الشديدة. وتعرض الجيش العثماني للمقاومة في أثناء تقدمه في الساحة التي تؤدي إلى "بتروأردلين". وعندما تم الوصول إلى "بتروأردلين (Petervaradin)" بعد معارك حامية الوطيس تم العبور

من الجسـر الذي أقيم في هذا المكان، وبعد ذلك وصلوا إلى "أَدِرْنَه" عن طريق بَلْغِرَاد-نيش-صُوفْيَا. ووصل السـلطان القانوني إلى إسـطنبول في ٧ صفر سـنة ٩٣٣هـ (١٣ تشـرين الثاني/نوفمبر ١٥٢٦م) وذلك بعـد أن مكث في أَدِرْنَه فترة من الزمن.

أزمة داخلية جديدة: حركات التمرد في الأناضول

تلقي السـلطان سـليمان في أثناء العودة من الحملة أنباء عن وقوع حركات تمـرد وعصيان في الأناضول على نطاق واسـع. في البدايـة لم يأبه بهذه الأنباء ولكـن الأخبـار التـي وصلته فيما بعـد جعلته يقتنـع بأن وقوع حـركات التمرد والعصيـان هـذه بتحريض مـن الصفويين أعدائه السـابقين بصفـة خاصة. ومع ذلـك فلم يكن الوضـع الحقيقي هكـذا، فقد تبين له فيما بعد أن حركات التمرد هـذه اندلعت لأسـباب اقتصادية واجتماعية، في حقيقـة الأمر وقعت فيما مضى في عهد السـلطان سـليم في الأناضول بصفة خاصة حركات عصيان على نطاق واسـع بين جماعات التركمان المنتمين إلى الشيعة، وتم قمـع حركات العصيان هذه بصورة قاسـية. فازدادت هذه الحركات إثر اعتلاء "طهماسب (*Tahmasb*)" الأول العرش، وكانت هناك حركات تمرّد أخرى أثّرت في اتساع رقعة العصيان المدني، ولهذا العصيان سببان:

الأول: استغلال الأخطاء الإدارية المتكررة في الأناضول.

الثاني: تصرفات كبار رجال الدولة من "الدُّوْشِيرْمَه" بممارسـتهم للضغوط الاقتصاديّة المتعمدة على الناس كما يدعّي بعض المؤرخين المعاصرين.

حيث اتضح أنه بمجرد أن تولى "القانوني" الحكم جرى في أثناء ذلك تقييد وتسـجيل الأراضـي العامـة التي أمر بإجرائها في محاولة لتأميـن وتوفير مزيد من الإيـرادات (الـواردات) للخزانة من أجل الحملات الجديدة. وأدت زيادة موظفي العقارات للضرائب وتخصيص قسم من أراضي السباهية للخزانة إلى استياء الشعب والسـباهية معًا، فوقعت أحداث مؤسـفة، وهكذا ظهرت الاضطرابات الاقتصادية

والاجتماعية في السنوات الأولى لحكم السلطان سليمان، وبدأت تندلع حركات التمرد والعصيان بعضها إثر بعض، وللدعايات الصفوية يد في ذلك.

ولما خرج السلطان سليمان إلى حملة "مُوهَاجْ" كلف قوات وأمراء من "قَارَامَانْ" والروم و"ديار بكر" وحلب ودمشق ومصر بحماية أمن بلادهم، وبذلك فقد اتخذ التدابير اللازمة ضد أي شغب أو اضطراب محتمل يمكن أن يحدث في هذه المناطق إلا أنه اندلع عصيان في "بُوزُوقْ (*Bozok*)" إحدى هذه المناطق أثناء تقدمه إلى "بُودِينْ". وحدث هذا بسبب الظلم والجور أثناء تسجيل أراضي سَنْجَقْ "بُوزُوقْ" التابعة لإدارة" مصطفى بَكْ بن هرسك زاده أحمد بَاشَا.

فعلى سبيل المثال قدّر موظفو التسجيل مائتي أَقْجَه ضريبة على مزرعة تحت تصرّف رجل مسن يدعى "سُوكْلُونْ قُوجَه (*Süğlün Koca*)" من تركمان "قِيزِلْبَاشْ"[٣٨]. وبناء على هذا رفع هذا الشخص التماسًا بالرجوع إلى موظف التسجيل قاضي مصلح الدين ومصطفى بَكْ أمير السَنْجَقْ من أجل تخفيض المائتي أَقْجَه إلى مائة أَقْجَه. ولكن تم رفض عرضه هذا كما قدم الموظفون الذين غضبوا بسبب إصراره على قص لحية هذا الرجل وتعذيبه. وأدى هذا التصرف في حقيقة الأمر إلى عصيان واسع النطاق في المنطقة. واتحد "سُوكْلُونْ قُوجَه" وابنه "شاه ولي" مع شخص يدعى "بَابَا ذُو النُّونْ (*Baba Zünnûn*)" يحتمل أنه الخليفة الصفوي وجمعوا حولهم تركمان "بُوزُوقْ" وقاموا حسبما يرى "جلال زَادَه (*Celalzâde*)" بقتل أمير السَنْجَقْ مصطفى بَكْ وقاضي مصلح الدين وكاتبه محمد في ٢٨ آب/أغسطس سنة ١٥٢٦م.

وأعقب هذا العصيان الذي حدثتْ في "بُوزُوقْ" حركات في نفس التواريخ تقريبًا في مناطق مَرْعَشْ وسِيوَاسْ و"آضَنَه (*Adana*)" و"طَرْسُوسْ (*Tarsus*)" و"إيجل (*İçel*)". ويبدو أن حركات العصيان هذه نشبت من مخطط واضح وتحريض سافر، واشتدّ العصيان عندما انضم إليه تركمان ذي القادر لاستيائهم

---

(٣٨) "قزلباش (*Kızılbaş*)"، تعني ذوو الرؤوس الحمراء، وهي مجموعة من الجنود الشيعة الذين عينتهم الدولة الصفوية في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. (المترجم)

مـن قتـل أميرهم شهسـوار أوغلو علـي بك، ولتأميـم ممتلكاتهـم، فزحف أمير أمراء "قَارَامَانْ" خرّم بَاشَـا لإنهاء عصيان تركمان بُوزُوقْ وذي القادر؛ وفي تلك الأثنـاء كان هؤلاء العصاة يداهمون القرى والمـدن الصغيرة ويجمعون مؤيدين لهـم قسرًا للتوجه إلى سِيوَاسْ، ووقـع اشـتباك في موقـع يسـمى "قُورْشُـونْلُو بَلِـي (*Kurşunlubeli*)" بيـن العصـاة وخـرّم بَاشَـا الـذي وصـل إليهـم بالقرب من "قَيْصَرِي"، وانهزم خرّم بَاشَا بسبب تعجّله في الهجوم. وسيطر العصاة المتمردون بعد هذا الانتصار على نواحي "تُوقَاتْ". وتم إبلاغ عصيانهم إلى السلطان العائد من المَجَر في هذه الأثناء من قبل بِيرِي بَكْ أمير آضَنَه.

واسـتعد حسـين بَاشَا أمير أمراء الروم (سِـيوَاسْ)، كما بدأ من ناحية أخرى كل مـن حسـين بَـكْ أميـر "طَرَسُـوسْ" ومصطفى بَـكْ أمير "سـيس" جمـع قوة مـن أجـل إخماد حـركات تمرد "بَابَـا ذُو النُّونْ" والتركمـان العصـاة. وزحفوا مـع بِيـرِي بَكْ إلـى المتمردين العصـاة، وبناء على هذا انسـحب بَابَـا ذُو النُّونْ وجماعـة العصـاة الذيـن كانوا تحـت إدارة سـوكلن أوغلي موسـى إلى نواحي سِيوَاسْ، وقاموا بسلب ونهب "تُوقَاتْ" و"آرْتُوقْ آبَاذْ (*Artukabad*)".

هـذا وقـد وصل محمود بَـكْ أمير "مَرْعَشْ" مع القـوات التي تحت إمرته إلى حسين بَاشَا في ١٢ أيلول/سبتمبر، وفي ذلك الحين كان حسين بَاشَا أيضًا قد أرسل "يُولَارْقِيسْدِي أُوغْلُو إِسْكَنْدَرْ بَكْ (*Yularkısdıoğlu İskender Bey*)" أميـر ملاطيـة بألف فارس للاستكشـاف وتفقّـد الأحوال. وبينما كان إِسْـكَنْدَرْ بَـكْ يريـد أن يوقـع المتمردين في الكمين الـذي نصبه لهم إذ انهزم نتيجة عدم ثبـات وصمـود جنوده، ووقـع حوالـي أربعمائة جندي أسـيرًا بيـد المتمردين في ميدان المعركة، أما هو فقد استطاع أن يهرب بصعوبة، وحذر بِيرِي بَكْ أمير آضَنَه من وصول جنود "ديار بكر" وغشـب ودمشـق إلى ملاطية ودعا لضرورة التوجه معًا لمواجهتهم، لكن حسـين بَاشَـا لم يلتفت لذلك بل سـارع بالهجوم علـى المتمرديـن لتخويفهـم، واضطر بِيرِي لمشـاركته، والتقت قوات حسـين بَاشَـا وبِيـرِي بَـكْ بتركمان ذو النون فـي موقـع يسـمى "هُويُوكْلُو (*Höyüklü*)"

في ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٥٢٦م. وانتهت المعركة بهزيمة المتمردين ومقتل بعضهم وكان من بينهم بَابَا ذُو النُّونْ كما قيل، إلا أن بقية قوات المتمردين الذين انسحبوا إلى الجبل بدؤوا يسلبون وينهبون الأشياء التي تركها عساكر حسين بَاشَا وهجموا مرة ثانية على الجنود وهزموهم ونجحوا في تشتيت قوات الحكومة. وأصيب حسين بَاشَا وانسحب إلى سِيوَاسْ، وتوفي بعد عدة أيام في هذا المكان متأثرًا بجروحه. وفي تلك الأثناء وصل خُسْرَوْ بَاشَا أمير أمراء "ديار بكر" وشتت العصاة المتمردين الذين فقدوا في حقيقة الأمر قسمًا كبيرًا من قواتهم بسهولة ويسر، وقتل معظمهم أيضًا بالسيوف. وهكذا انتهت حادثة بَابَا ذُو النُّونْ.

وبعد انتهاء حادثة بَابَا ذُو النُّونْ ظهرت حركات عصيان وتمرد في نواحي آضَنَه، عصيان "دوموز أوغلان" في ناحية "أولاش (*Ulaş*)" وعصيان "يَكْجَة (*Yekçe*)" و"وَلِي خليفة" من "قرة عيسى لي (*Karaisalı*)" وجمعوا الرجال حولهم وشقوا عصا الطاعة في أوائل سنة ١٥٢٧م. وداهموا القرى والمدن الصغيرة المحيطة بهم. وبناء على هذا قمع بِيرِي بَكْ الذي اشترك في حادثة بَابَا ذُو النُّونْ عصيان "دُومُوزْ أُوغْلَانْ (*Domuzoğlan*)" أولا وعصيان يكجة بَكْ في أثره من بعده قُتل "دُومُوزْ أُوغْلَانْ" فيها، أما يكجة بَكْ فقد تم إرساله إلى إسطنبول حيًّا، وأعدم في العاصمة. وحشد ولي خليفة بن قاضي قرة عيسى لي مصطفى خليفة المعروف بخليفة شاه إيران أكثر من خمسمائة رجل، وكأنه بهذا قد حرض ثلاثة سناجق كما قال جلال زاده، ثم هجم على طرطوس، وبدأت في هذا المكان معركة رهيبة حامية الوطيس، وقد هزم بِيرِي بَكْ الذي وصل في هذه الأثناء العصاة المتمردين هزيمة نكراء، "وقتل زعيمهم وقضى عليهم، وظهرت عقبة حركات العصيان في "بُوزُوقْ" و"جُوقُورْأُووَا (*Çukurova*)" حركة عصيان أشمل منها وأوسع.

انتشرت هذه الحركة ما بين قَارَامَانْ ومَرْعَشْ بزعامة "قَلَنْدَرْ شَلَبِي (*Kalender Çelebi*)" سليل "حاجي بكتاشي" وهو من سلالة حبيب أفندي كما يدعي،

أما أمه فهي مغمورة، فشجرة نسبه فيها: والده إسْكَنْدَرْ، وجده "بالم سلطان" ووالد جده "رسول شَلَبِي" والد حبيب أفندي، وفي ثبوت هذه السلسلة شكوك.

وسرعان ما احتشد الآلاف من حوله لادعائه أنه شيخ تكية "حاجي بكتاشي" وسليل نسبه، وتشير المصادر يومئذ إلى أن عددهم بلغ مع شيعة تركمان قَارَامَانْ ونواحيها ثلاثين ألفًا، فاستطاع أقلندر شَلَبِي القياديّ في حركات التمرد الأخرى أن يستفيد من مكانته لحشد هذا العدد بواسطة الدراويش في التكايا التي بلغ عددها المئات حسب ما قال المؤرخ جلال زاده، والذين رفعوا رايات قلندر وقرعوا الطبول ونفخوا في المزامير المصنوعة من القرون، وبدأت أعمال السلب والنهب والقتل، كان معظم من اجتمع لـ"قَلَنْدَرْ شَلَبِي" من البدو التركمان المتشيعين وفي مقدِّمتهم عشائر "جِيجَكْلِي (*Çiçekli*)" وأَقْجَه قويونلي (*Akçakoyunlu*)" و"مصاتلي (*Masatlı*)" وبُوزُوقْلو رغم أن ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية جيدة جدًّا، لكنهم اعتادوا الحرية بدلا من القيود الصارمة، واستاءوا من ضرائب الدولة الباهظة وأعبائها.

وعندما وصل السلطان سليمان إلى "بتروأردلين (*Petervaradin*)" عائدًا من صحراء مُوهَاجْ بلغه خبر عصيان قلندر وتمرده، وعندما علم بانتشار حركة العصيان، أرسل الأوامر على الفور إلى أمراء الأناضول، وكلّف أيضًا الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا عند عودته إلى إسطنبول بفض هذا التمرد.

ويظهر لنا كل هذا أن الوضع قد بات خطيرًا وحساسًا للغاية. وبناء على ذلك انطلق إبراهيم بَاشَا بثلاثة آلاف جندي إنكشاري وألفين من فرسان الـ"قَابِي قُولُو" وعندما اقترب من أقسراي وجّه قوات بقيادة بَهْرَامْ بَاشَا أمير أمراء الأناضول ومحمود بَاشَا أمير أمراء "قَارَامَانْ" لمهاجمة قلندر شَلَبِي.

والتقت هذه القوات بالعصاة المتمردين في موقع أطلق عليه "جِنْجَفَة (*Cincefe*)"، وقد انهزموا في المعاركة وقتل محمود بَاشَا أمير أمراء "قَارَامَانْ"، وسنان بَكْ أمير "علائية (*Alaiye*)" وقوجي بَكْ أمير أَمَاسْيَا، ومصطفى بَكْ أمير "بِيرَجِيكْ (*Birecik*)"، و"نوح" دَفْتَرْدَارْ إقطاع الأناضول، والشيخ محمد كتخدا

(وكيل) دفتر "قَارَامَانْ" في ميدان المعركة، (٨ رمضان ٩٣٣هـ / ٨ حزيران/يونيو ١٥٢٧م) وكان إبراهيم بَاشَا الذي تلقى خبر هزيمة القوات العثمانية هزيمة نكراء ووفاة كثير من الأمراء، فوصل على الفور بالقرب من "البستان" ومعه ثلاثة آلاف جندي إنكشاري وألفان من فرسان الـ"قَابِي قُولُو" الذين تحت إمرته. وشعر بوجوب اتخاذ بعض التدابير في مواجهة تفوق العصاة المتمردين من حيث العدد. لأن العصاة المتمردين قد استولوا على كثير من العتاد الحربي الذي تبقى في الميدان بعد المعركة، وانضم إليهم نتيجة هذا النصر أناس آخرون، وهكذا زادوا أكثر فأكثر من حيث العدد.

والتحق بـ"قَلَنْدَرْ" أيضا بعض أهل السنة وليس الشيعة القيزلباشيه فحسب، فلم يعد تمرده طائفيًا، بل بات صراعًا مع العثمانيين على السلطة، ويروى كذلك أنه تلقب بلقب "قَلَنْدَرشَاهْ"، وأنه أقام علاقة مع الصفويين أيضًا.

ولهذا اضطر إبراهيم بَاشَا إلى اتخاذ بعض التدابير ضد قلندر الذي يقوى ويشتد ساعده شيئًا فشيئًا. وهذه التدابير هي:

حال دون اتصال المنهزمين بالقوات الجديدة التي لم تخض الحرب بعد، فقضى على ما قد يحدث من هزيمة معنوية للجدد.

ولم يجند إبراهيم بَاشَا عساكر من الولايات سوى فرقة الـ"قَابِي قُولُو"؛ وذلك لأن الولايات لم تقاتل معه التركمان مطلقًا لقرابتهم بل انضموا إليهم، إلا أن إبراهيم بَاشَا أدرك صعوبة مقاومة العصاة المتمردين الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفًا عن طريق القوة، فعقد على الفور اجتماعًا مع الأمراء، واتخذ في الاجتماع قرارات صارمة، منها أن على أمراء تركمان دُوالْقَادِر الموالين لـ"قَلَنْدَرْ" الإذعان للدولة وطاعتها من جديد.

كان هؤلاء هم فرسان تركمان "دُوالْقَادِر" الذين طالهم التأميم بعد مقتل شهسوار أوغلو؛ فانضموا إلى "قَلَنْدَرْ"، واعتزل أمراء هذه العشيرة قلندر بناءً على وعد إبراهيم بَاشَا لهم بإلغاء التأميم وانسحبت معهم عشائر "دُوالْقَادِر" التابعة

لهم مثل "جِيجَكْلِي (*Çiçekli*)" و"أَقْجَه قُويُونْلُو (*Akçakoyunlu*)" و"مَصَاتْلِي (*Masatlı*)" وبُوزُوقْلو.

وفي الحقيقة، يتضح أنهم فضلوا بناءً على إعادة إقطاعاتهم إليهم البقاء تابعين للعثمانيين بدلًا من الدخول في طريق مظلم.

وأرسل إبراهيم بَاشَا قوة بقيادة قائدين من الـ"قَابِي قُولُو" وهما بلال آغا رئيس طباخي (ذواق) القصر و"دلي بروانه (*Deli Pervâne*)" - إلى قلندر الذي بقيت حوله قوة قليلة جدًا. وفي ٢٢ رمضان سنة ٩٣٣هـ (٢٢ حزيران/يونيو سنة ١٥٢٧م) تشتت شمل العصاة المتمردين الذين بوغتوا بهجوم هذه القوات في مرعى (مرج) أطلق عليه اسم "باش صاريز" ومات قلندر في هذه المعركة. وقتل أيضًا مع قلندر من يدعى "دِيوَانَه دُونْدَارْ (*Divâne Dündar*)" الذي قيل إنه من أبناء ذُو الْقَادِر.

كان إبراهيم بَاشَا قد استاء من هزيمة أمير أمراء الأناضول وجنوده، فعقد اجتماعًا لبحث أسبابها بعد أن نكل بالمتمردين وقتل عددًا منهم.

وحسبما قال المؤرخ جلال زاده الذي حضر هذا الاجتماع وشهد استجواب إبراهيم بَاشَا ودوّنه: إن الصدر الأعظم تكلم بشكل قاس لأولئك الذين انهزموا أمام المتمردين وهربوا: كيف تنهزم وحدة مدربة تدريبًا عسكريًّا أمام مجموعة غير منظمة لا خبرة لها ولا تجربة، وذكر أنه يجب الإعدام فورًا لأولئك الذين تسببوا في هذا. وبعد أن أوصى إبراهيم بَاشَا المؤرخ جلال زاده بأن يدوّن الردود على الأسئلة ليطلع السلطان عليها، وجّه السؤال الأول إلى "بَهْرَامْ بَاشَا (*Behram Paşa*)"، فلم يستطع الرد عليه فسأل الأمراء الآخرين فلم يحر أحد جوابًا، وغضب إبراهيم بَاشَا لتبادل الاتهامات، وما هدأ حتى سمع كلام محمد بَكْ أمير سَنْجَقْ "إيجل" ابن الصدر الأعظم السابق بِيرِي محمد بَاشَا، قال محمد بَكْ بعد أن مدح البَاشَا وأثنى عليه إن القادة الكبار السابقين عندما وصلوا بالقرب من العدو، تفاوضوا مع العقلاء، وتناقشوا، وبعد ذلك تحركوا وفقًا للقرار الذي اتخذ، أما نحن فقد ناقشنا قادتنا، ولم نستطع أن نتخذ قرارًا واحدًا،

ولـم يعبـأ الأمراء بذوي الرتب الدنيا من الخبـراء المحنكين، بل اغتروا بقوتهم، واسـتخفوا بأتبـاع حَاجِـي بَكْتَاشْ فهُزِموا؛ وعـدل إبراهيم بَاشَـا-الذي تأثر بهذا الكلام- عن قراره بإعدام الأشخاص الذين اعتبرهم متهمين.

وبعـد مقتل قلندر اسـتدعى بِيرِي بَـكْ أمير آضَنَه إلى إسـطنبول، ومثل بين يدي السلطان وقدمت إليه الهدايا الثمينة. ولكنه مرض بعد مدة ولازم الفراش، ولذلك لم يستطع العناية والاهتمام بشؤون السَنْجَقْ.

وفـي تلـك الأثنـاء اندلع عصيـان آخر في آضَنَـه وما حولها. وكان سـبب هذا العصيان شـخص يدعى "سَـيْدِي (*Seydi*)" ابن أخت أحمد بَكْ أمير سَـنْجَقْ "أُوزَيْر (*Üzeyr*)". وبالرغم من أن "سَـيْدِي (*Seydi*)" لم يكن شـيعيا "قيز لباش" إلا أنـه ارتـدى فيمـا بعد تاجا"[٣٩] أحمر اللون فوق رأسـه. وبـدأ يجمـع الرجال حولـه. فـي البدايـة داهـم "سَـيْدِي" الذي قتـل خاله أحمد بَـكْ معسـكر "قِينِيقْ (*Kınık*)" (١٢ شـباط/فبراير سـنة ١٥٢٩م)، وقتل اثنين من أصحاب الإقطاعات وهما يوسـف وحسـين مـن أبناء ونبـلاء "قينيق". وبعـد أن داهم ناحيـة "برندا دمـر" إياس". وفي ذلك الحين اجتمـع حوله ٥٠٠٠ (خمسـة آلاف) رجل وبناءً على اشتداد العصيان وزيادة حدته، تحرك بِيرِي بَكْ أمير آضَنَه رغم شدة مرضه بألف وخمسمائة من رجاله وأربعة آلاف من المشاة ورماة السهام الذين جمعهم مـن المناطق المجاورة. وعندما شـعر "سَـيْدِي" بمجيء هذه القـوات إليه انتقل إلـى مدينـة "قَادِرْلِي (*Kadirli*)" التابعة لـمدينة "مَرْعَـشْ". وأحرقها، وعين عليها متمردًا يدعى "إِينْجِيرْ يَمَزْ (*İncir Yemez*)" كان من بين خمسـمائة رجل التحقوا بـه، ثـم توجه إلى "سـيس (*Sis*)" (قُوزَانْ) وهاجمها، فلاذ أمير سَـنْجَقْ "سـيس" بالقلعـة، وبينمـا كان المتمردون يحاولون حرق المدينة والاسـتيلاء على القلعة وصل بِيرِي بَكْ بقواته وحاربهم، وثبت حتى هزمهم هزيمة نكراء رغم أن بعض جنوده هربوا نحو الجبال، وانقسـم العصاة المتمردون إلى قسـمين هرب قسـم منهم إلى سَـنْجَقْ "أوزير" مـع زعمائهم "أُورْكْمَزْ (*Ürkmez*)" وإِسْـكَنْدَرْ و"شَـاهْ

---

(٣٩) أي: غطاء رأس. (المترجم)

فَرَخ" من أبناء "أوزير"، أما الآخرون فظلوا بجانب "سَيْدِي" إلا أنه تمت إبادتهم من قبل قوات بِيرِي بَكْ في معبر (ممر) ودرّبند في جبال سيس، وألقى القبض على سيدا "سَيْدِي"، وقتل أخوه "جيهانشاه". وبعد إرسال "سَيْدِي" المقبوض عليه إلى إسطنبول، هجم بِيرِي بَكْ بقواته على "أوزير" ونجح أيضًا في تشتيت القوات الموجودة في هذا المكان (٢٤ شباط/فبراير). وهكذا تم القضاء على حركات العصيان هذه التي وقعت في منطقة آضَنَه. ولكن في تلك الأثناء كانت حكومة إسطنبول مشغولة في العاصمة بقضية مهمة شغلت كبار رجال الدولة والعلماء. وهي حادثة "المُلّا قابض".

حادثة "الملا قابض"

وفد الملا قابض من إيران وجالس العلماء العثمانيين، فأحدث فتنة دينية في إسطنبول، وتعد هذه الحادثة مهمة وجديرة بالملاحظة لإظهار عقلية "القانوني" وموقف أهل ذلك الزمان من هذه الحوادث، فبينما نجد أوروبا تحرق من دخله الشك في إيمانه حيًا دون تحقيق معه نلاحظ أن إسطنبول تدعو من يختلق الأكاذيب ويفسد أصول الدين الإسلامي للحوار والمناقشة العلمية ليتوب، وهذا نموذج ممتاز يكشف النقاب عن عقلية العثمانيين.

قام الملا قابض في أواخر سنة ١٥٢٧م بإثارة فتنة في الحانات ومجالس الأصدقاء، واعتبر سيدنا عيسى عليه السلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ. وقام بتفسير بعض الآيات والأحاديث لإثبات ذلك. ولما رأت الحكومة العثمانية أن هذه الادعاءات قد تزعزع عقيدة الناس وتفرز مشكلة اجتماعية قررت تفنيد أفكار الملا قابض بالحوار والمناقشة.

وعلى هذا دُعي الملا قابض إلى الديوان السلطاني، وطلب منه إثبات ادعاءاته أمام قضاة العسكر. وحضر في اجتماع الديوان الذي عقد في إسطنبول في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٥٢٧م كل من "فَنَارِي زَادَه (*Fenârîzâde*) محيي الدين" قاضي عسكر الرُّومَلِي، و"قَادِرِي شَلَبِي (*Kadirî Çelebi*)" قاضي

عسكر الأناضول. ولم يخش قابض من عرض آرائه وسردها في هذا المكان أيضًا وقال:

"ما بأيدينا من الكتاب والسنة يدل دلالة واضحة صريحة على أن سيدنا عيسى عليه السلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ".

وتلا بعض الآيات والأحاديث، فحيّر الحاضرين في الديوان وأدهشهم. وطالب القادة الحاضرون في الديوان القضاة بالرد عليه، إلا أنهم لم يجدوا شيئًا يقولونه، واكتفوا بالحكم عليه بالإعدام.

ولما ظهر عجزهم عن تفنيد الشبهات حذرهم الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا، وطالبهم بحلّ المشكلة علميًا، ولكن تحذيراته لم تحقق أي فائدة.

وأصرّ قضاة العسكر بحدة وغضب على قتل قابض. وكان السلطان يسمع هذه المناقشات من وراء النافذة الخشبية المتشابكة فسأل الصدر الأعظم قائلًا:

"يأتي هذا الملحد إلى ديواننا ويهذي بجرأة بكلام لا يليق بمقام نبينا ﷺ؛ ويستدل بالنصوص على زعمه الفاسد ويدخل ويخرج بحرية لماذا يحدث هذا؟"

فأجاب إبراهيم بَاشَا قائلًا:

"ماذا نفعل؟ فقضاة العسكر ليسوا من علماء العقيدة ليفحموا هذا الملعون"

وبناءً على هذا أمر السلطان بنظر القضية في حضور المفتي كمال بَاشَا زاده وقاضي إسطنبول سعدي الشَلَبِي.

وفي اليوم التالي تم استدعاء قابض مرة ثانية إلى الديوان، وحينما حضر شيخ الإسلام وقاضي إسطنبول جيء به لمناقشته مرة أخرى، وسأله كمال بَاشَا زاده بلطف:

"ما هي أدلتك؟"

فأعاد قابض شبهاته، وردّ شيخ الإسلام بأن هناك معاني دقيقة للغاية في هذه الآيات والأحاديث، ثم بينها واحدة واحدة، وكشف زيف شبهات قابض، فتحير قابض أمام هذه الأجوبة، وأعاد شيخ الإسلام بعد ذلك خطابه إلى قابض الذي بدا وكأنه انعقد لسانه، وسأله قائلًا:

"الآن حصحص الحق، هل لديك أدلة أخرى؟ فهل تتخلى عن الاعتقاد الباطل وتقبل الحق؟"

إلا أن "قابضًا" أعاد شبهاته نفسها مرة أخرى، وركب رأسه وتشبث بأفكاره، واتجه كمال بَاشَا زاده عندئذ إلى قاضي إسطنبول، وقال:

"انتهت المناقشة، فاقضوا بما يحكم به الشرع".

والتفت قاضي إسطنبول سَعْدِي شَلَبِي إلى قابض وسأله قائلا:

"هل تراجعت عن اعتقادك واتبعت مذهب أهل السنّة والجماعة؟"

ولكن قابضًا أصرّ على آرائه، فحكم عليه بالإعدام، وأعدِم فورًا عقب الجلسة في ٩ صفر ٩٣٤هـ ٤ - تشرين الثاني/نوفمبر١٥٢٧م.

وهكذا تم إنهاء فتنة قابض الذي لم يتردد في التعبير عن آرائه وأفكاره ذات الطابع التبشيري بحرية وصراحة ـ من قبل السلطان سليمان الذي اعتبر الحادثة ليست مسألة دينية فحسب بل مسألة أمن قومي في الوقت نفسه.

وبعد شهرين أو ثلاثة من مسألة قابض اقتحم بعض قطّاع الطرق أحد المنازل في إسطنبول في ٢٤ شباط/فبراير سنة ١٥٢٨م وقتلوا جميع من بداخله. ومع أنه تم البحث والتحري عن هويتهم إلا أنه لم يعثر على أي إشارة تدل عليهم. وعلى هذا ألصقت الجريمة بمجموعة من العاطلين عن العمل الموجودين في الشوارع والطرقات، وقبض على حوالي ثمانمائة شخص وأعدموا.

أما في ٢٥ نيسان/أبريل فقد قتل قاضي حلب ومحتسبها حيث تعرض لهجوم الناس عليه في أثناء صلاة الجمعة في مسجد "أُولُو (*Ulu*) جامع"

(الجامـع الكبيـر) في حلـب والذي قدمت في حقه شـكاوى كثيـرة عندما كان مفتشًـا للمالية في حلب، واسـتطاع أن يخفي هذه الشكاوي في كل مرة بواسطة المدافعين عنه في إسطنبول. فصدر قرار بنفي كثير من وجهاء حلب إلى رودس، ثم استُدعي بَالِي بَكْ أمير سَنْجَقْ إسـكندرية إلى إسطنبول للتحقيق معه، فأعدم هو وثمانون من رجاله تقريبًا.

وحسبما سيتضح بعد فقد وقعت كل هذه الأحداث في أثناء حملة السلطان سـليمان على مُوهَاجْ وبعدها. وقد حمّل السـلطان سـليمان الصفويين مسؤولية هـذه الحـركات المتمـردة الطائفية فيما يبـدو، لكن تطور الأحـداث في أوروبا خاصة بلاد المَجَر لما لها من أولوية حال دون توجيه السـلطان سـليمان ضربة عسكرية للصفويين.

حملة الـمَجَر الثانية وحصار "فيينا"

توفي ملك المَجَـر "لايوس (*Lajos*) الثاني" في مُوهَاجْ وليس له وارث يخلفه، فنشـأ خـلاف فيمـن يرثـه، وتدخـل آل هابسـبورج، إذ ادعى فرديناند وَالِي أقاليم النمسا وبوهيميا في إمبراطورية هابسبورج حقّـه في العـرش لزواج "لايـوس الثاني" بشـقيقته، (تم إعلانـه ملكًا علـى المَجَر: ١٧ كانـون الأول/ديسـمبر ١٥٢٦م)، أمـا عقلاء المَجَر فقد اختـاروا "زَابُولْيَا" وَالِي أَرْدَلْ ملـكًا، فوافـق العثمانيـون عليه بعد خروجهم من بُودِينْ بشرط أن يكون تابعًا لهم وأن تكون المنطقة منزوعة السلاح.

حصار فيينا الأول في منمنمة تعود إلى القرن السادس عشر

ومما لا شك فيه أن للسلطان سليمان والصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا دورًا محوريًّا في تشكيل سياسة المَجَر، وفي ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٥٢٧م طرد فرديناند "زابوليا" من بُودِينْ، وأعلن نفسه ملكًا على المَجَر في ٣ كانون الأول/ديسمبر، وصبّ السلطان سليمان وإبراهيم بَاشَا جلّ اهتمامهما على هذه المنطقة رغم ما تمر به البلاد من أزمات. واستقبل السلطان سليمان النبيل البولندي الذي أرسله "زابوليا" ويدعى "لاشسكي (*Lasczky*)"، وذكر له أنه سيقدم الدعم والمساعدة إلى "زابوليا"، ثم وصل سفراء فرديناند إلى إسطنبول بمبادرات رفضت جميعها، واعتقلوا وبدأت الاستعدادات لحملة جديدة.

خطط السلطان سليمان لإنقاذ بُودِينْ بداية ومساعدة زابوليا ومساندته، وما قيل من أنه استهدف فيينا للاستيلاء عليها أولًا ثم حاول إخضاع آل هابسبورج والمَجَر كلامٌ عارٍ عن الصحة.

فالمفاوضات التي أجراها السلطان سليمان ووزيره الأعظم إبراهيم بَاشَا مع السفير تظهر بوضوح كم كانا مطلعين على سياسة أوروبا.

وقد لعب "ألفيس كريتي (*Alvise Gritti*)" ابن "اندريا كريتي (*Andrea Gritti*)" الذي كان حاكم البندقية وسفيرًا في إسطنبول فيما مضى دورًا مهمًّا في هذا الأمر بصفة خاصة. كان هذا الشخص موهوبًا للغاية، وقد حظى بثقة السلطان وإبراهيم بَاشَا به بفضل متابعته الجيدة للغاية لأمور أوروبا والتطورات التي تحدث فيها ومعلوماته الغزيرة.

وقد تمكن سفير زابوليا من لقاء السلطان بواسطته. وفي ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٥٢٧م استقبل إبراهيم بَاشَا "لاشسكي"، واستنكر تحركات زابوليا، وأشار إلى أنه معلوم ما قد يقوم به كل من اللذين استوليا على الملك (فرديناند وزابوليا) وما قد يقوم به الأمراء المسيحيون الآخرون. وحاول السفير بسبب هذا الكلام تلطيف الجو فذكر أن زابوليا رغب بشدة في الحصول على مساعدة السلطان وليس صداقته. وفي اليوم التالي خاطب مصطفى بَاشَا السفير مرة أخرى بصورة قاسية وقال له:

"كيف تجرأ سيدك على دخول بُودِينْ التي فتحها السلطان، ودخول قصرها الخاصِّ بسيدنا السلطان عند عودته، فكل مكان استراح فيه السلطان ووطئته قدما حصانه يدخل تحت حكمنا وسيادتنا في قانوننا؛ وكيف ادعى سيدك العاجز الفقير في كلامه أنه أبو سعادة السلطان، أنت أتيت لطلب مساعدتنا لا لصداقتنا، حسنًا الآن قل ما عندك".

استقبل الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا السفير للمرة الثانية في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر وقال له:

قتلنا ملك المَجَر فأصبحت بلاد المَجَر للعثمانيين، لقد حكمناها بالقوة لا بالمال، وما أخذ بالقوة لا يستردّ إلا بالقوة، ولم تكن لبلاد المَجَر خزانة فإذا أصبحت تابعة للسلطان فالمساعدة تغدو ممكنة حينئذٍ، وبهذا يقضَى على فرديناند ومن معه".

ثم واصل حديثه قائلًا:

"إذا زحفت إلى فرديناند وهاجمته بالجنود الإِنْكِشَارِيّة وجنود الرُّومَلِي، أو إذا سار أَيَاسْ بَاشَا بالبُغدانيين والتتار إلى سيدك، ماذا كان سيحدث، فقد تخلينا عن هذه الحملة هذا الصيف بناءً على طلب أصدقائنا البنادقة، وإذا اقتضى الأمر فنحن مستعدون للخروج إلى الحرب، نحن نرى أن المنافسين قضى كل منهما على قوات الآخر وكانت جيوش السلطان سوف تنتصر بسهولة ويسر".

وذكر إبراهيم بَاشَا أيضًا أنهم سيجعلون بُودِينْ مدينة تركية، ثم استعمل تلك الكلمات اللافتة للنظر:

"... تحدثت إليك بالأسلوب التركي أي باختصار شديد، فالأتراك يتكلمون قليلا ويعملون كثيرا. أنت تراني أبتسم وتتعجب، أبتسم لأنك أتيت تطلب الأراضي التي فتحناها بالقوة، فلتعلموا أن لدينا مخالب أكثر قوة ورعبًا من مخالب الصقر، فإنا لا نتخلى عن أرض فتحناها، حتى وإن قتلنا دونها".

استقبل السلطان سليمان "لاشسكي (*Lasczky*)" وقال له:

"أتقبل وفاء حاكمكم بكلّ حب، وليس هو من يحكم بلادكم فعلًا، فتلك الأرض التي يحكمها تحت إمرتنا فتحناها بسيوفنا، وإنما كافأناه بولاية بلاد المَجَر لانتسابه إلينا، وسنقف معه ضد فرديناند حاكم النمسا، فليطمئن".

ثم صرّح إبراهيم بَاشَا للسفير بأنه سيهاجم عدو الملك وسيتوّج حاكمه "ملكًا" وليس محافظ "أَرْدَلْ".



خريطة "فيينا" في منمنمة ترجع إلى القرن السادس عشر

وفي الحقيقة، حتى لو لم يطلب "زابوليا" المساعدة فإنه لا يمكن تصوّر أنّ العثمانيين سيسمحون بسيطرة فرديناند على بلاد المَجَر وحكمها. واستفاد العثمانيون من زيارة "لاشسكي" كثيرًا جدًّا، إذ تغير الأمر وصاروا في موقف

الدفاع عن زابوليا؛ وأخيرًا اعترفت الحكومة العثمانية وفقًا للمعاهدة التي تم الاتفاق عليها في ٢٩ شباط/فبراير سنة ١٥٢٨م بجان "زابوليا" حاكما تابعًا لها.

وفي تلك الأثناء علم فرديناند بمبادرة زابوليا واستمالته العثمانيين إليه، فأرسل هو أيضًا إلى إسطنبول؛ لأنه بدأ يدرك أيضًا أن الطريق إلى حكم المَجَر يمرّ من مركز الدولة العثمانية، وتشكل وفد من سفارة النمسا وهما "هوبور دانسكي جانوس (*Hobordansky Janos*)" و"سيجسموند فايشتسلبرجر (*Sigismond Weichselberger*)" ووصل إلى إسطنبول في ٢٩ أيار/مايو سنة ١٥٢٨م، وامتاز بكونه أول وفد سفارة ترسله النمسا.

استقبل الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا السفراء، وأزعجه حديثهم عن فرديناند وتعظيمهم له، وسأل السفير "هوبور دانسكي" كيف استطاع تعظيم فرديناند والافتخار به بهذا الشكل وهو ماثل بين يدي السلطان في الوقت الذي يطلب فيه كل العالم المسيحي الدخول تحت ظل السلطان وحمايته.

فقال السفير بوقاحة:

"ما هي الدول المسيحية التي رضيت بالحماية العثمانية".

فأفحمه إبراهيم بَاشَا وأسكته لما ذكر له أنّ من بين تلك الدول فرنسا وبولندا والبندقية وأَرْدَلْ.

وقدم سفراء فرديناند إلى الصدر الأعظم قائمة تتضمن أسماء مناطق يريدها ملكهم مقابل الخراج، وعندما رأى إبراهيم بَاشَا هذه القائمة، احتد غضبًا، وعبر عن دهشته بعدم طلب فرديناند إسطنبول أيضًا!. وأنهى المناقشات والمباحثات متحدثًا بقوله:

> "هل ظننت أن السلطان فقيرٌ بحيث يعيد بالمال مافي حوزته من أراضٍ فتحها بالسيف، هل ترى "يَدِي قُولَه" هذه المليئة بالخزائن، لويريد سيدك السلام وحسن الجوار فالطريق الوحيد لذلك هو إخلاء بُودِينْ وبلاد المَجَر".

وفي الحقيقة كان يوجد في قائمة فرديناند أسماء العديد من المدن والقلاع التي تحت الحكم العثماني، وفي مقدمتها بَلْغِرَاد و(بُوكُرْدَلَنْ، و"صلانقامن (*Salankamen*)"، و"بتروارادين (*Petervaradin*)"، و"سورين (*Severin*)"، و"أورصوفا (*Orsova*)"، و"يَايْجَه (*Yayçe*)"، و"بنالوقا (*Banaluka*)"، و"سكوردانا (*Skordana*)"، و"نوفيجراد (*Novigrad*)"، و"سِيوْرِي حِصَارْ (*Sivrihisar*)" وسِيرَمْو أماكن عديدة في البُوسْنَة).

وهكذا وعقب هذه اللقاءات التي لم تسفر عن أي نتيجة اتخذ السلطان سليمان قرارا بالسفر في حملة إلى بلاد المَجَر بغية معاقبة فرديناند وحماية زابوليا. وفي ذلك الحين كان نفوذ إبراهيم بَاشَا قد ازداد كثيرا. فكان يتجول بملابس أنيقة وقيمة. ويتابع سياسة أوروبا مع صديقه الحميم "ألفيس كريتي" كريي البندقي. وكان كريي ابنًا غير شرعي لحاكم البندقية، ويعمل مستشارًا لإبراهيم بَاشَا، فكان يطلعه على أمور أوروبا. ثم إنَّ إبراهيم بَاشَا التمس للسلطان خوذة كبيرة تعبّر عن أنه حاكم العالم كتلك القلنسوة المخروطية التي يلبسها البابا، وأعد صاغة (تاجر مجوهرات) "ريالتو (*Rialto*)" البندقية هذه الخوذة المزينة (المرصعة) بقيمة ١٤٤٠٠٠ (مائة وأربع وأربعين ألف) ذهبية وأرسلوها إلى إسطنبول.

وفضلًا عن ذلك فإن إبراهيم بَاشَا أسس علاقات تجارية كبيرة مع البندقية حتى إنه عين العديد من الصناع المهرة البنادقة في الترسانة البحرية بين تاريخي ١٥٢٥ - ١٥٣٦م، وتم استخدامهم في إنشاء وبناء السفن. ومن المعلوم أن هؤلاء الصناع المهرة قد تفرقوا ورحلوا بعد إعدامه.

أسند السلطان سليمان إلى الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا صلاحيات كبيرة من أجل حملة المَجَر الثانية التي ستنتهي بحصار فيينا.

وكتب المؤرخ جلال زاده مصطفى شَلَبِي أن فرمان منصب القيادة العامة للجيش كان يحتوي على صلاحيات واسعة لم تكن معتادة أو مألوفة حتى ذلك اليوم.

ويروي جلال زاده هذا الموقف كما يأتي:

"ذات يوم استدعى السلطان سليمان إبراهيم بَاشَا في اجتماع الديوان وذكر له أن الدولة اتسعت وزادت الأعمال وليس في وسعه وإمكانه الاهتمام شخصيًا بكل عمل والقيام به، ولذلك قال إنه عينه قائدًا عامًّا للجيش بحيث يطيعه كبار وصغار موظفي الدولة بمن فيهم الوزراء أيضًا طاعة كاملة. وأن يتبع قادة الجيش أوامره مثلما كانوا يتبعون أمر السلطان وأردلته. وهكذا وصل إبراهيم بَاشَا إلى أعلى نقطة لسلطته. ويحمل فرمان تعيينه هذا تاريخ ٢٧ مارس سنة ١٥٢٩م. أما الدخل الخاص بإبراهيم بَاشَا فقد بلغ ثلاثة ملايين أَقْجَه. وفي ذلك الحين عين كُوزَلْجَةقاسم بَاشَا في منصب الوزير الثاني عقب وفاة مصطفى بَاشَا الوزير الثاني، وكلف إبراهيم بَاشَا مرة ثانية عشية الحملة بإمارة الرُّومَلِي".

غادر السلطان سليمان إسطنبول يوم الاثنين ٢ رمضان سنة ٩٣٥هـ (١٠ أيار/مايو ١٥٢٩م)، وكان قد وعد بحماية "زابوليا" ضد فرديناند حاكم النمسا، ولم يرسل الجيش والحامية إلى دولة المَجَر بل آثَرَ أن تبقى الآن مستقلة تحت حكم زابوليا وإدارته لمواجهة آل هابسبورج، وبعد أن نزل الجيش في "حلقة بيكار" ووصل إلى "جَاتَالْجَه (*Çatalca*)"، صدر في هذا المكان فرمان بشأن تنظيم السَير حيث يسير السلطان أمام الرايات ثم رؤساء الطباخين (الذّواقون)، وحّراس الخزانة، و"آغا الأَنْدَرُونْ (*Enderun*)"(٤٠)(رئيس الطواشية في القصر العثماني) وقضاة العسكر، والدَفْتَرْدَارْ، والنيشانجي (التوقيعي).

ووصل السلطان إلى أَدِرْنَه وأقام فيها عشرة أيام واطّلع على أعمال الإمداد والتموين المتعلقة بالحملة. ووصل الجيش الذي غادر أَدِرْنَه إلى بَلْغِرَاد سالكا" طريق "فِلِبَة (*Filibe*)"-صُوفْيَا -"نيش (*Niş*)"، وقدّم بعض نبلاء المَجَر وأشرافها في هذا المكان ولاء الطاعة. وفي أثناء بدء التقدم إلى أراضي المَجَر

(٤٠) آغا الأَنْدَرُونْ: رئيس الطواشية في القصر العثماني. (المترجم)

قدّم جون زابوليا ومعه سفيره "لاشسكى (*Lasczky*)" وستة آلاف فارس ولاء الطاعة، فاستقبلهم السلطان ورحّب بهم، ومن ناحية ثانية تم إرسال "خَطِّ هُمَايُونْ (*Hatt-ı Humayun*)"[٤١] من إسطنبول إلى زابوليا قبل ذلك وطلب إليه أن يأتي مع قواته ليلتحق بالجيش العثماني، وأما الذخائر والعتاد فلا نعاني من نقص فيهما، فكلاهما وافر، وأجريت المراسم في أثناء مثول "زابوليا" بين يدي السلطان، حيث مر زابوليا بين جنود الأناضول والرُّومَلِي الذين اصطفّوا من ناحيتين ووقفوا صفّين متقابلين بداية من أمام خيمة السلطان واستقبله السلطان الذي يحيط به الوزراء، واقفًا لكي يظهر الأهمية التي أولاه بها، وقبّل زابوليا أيضًا يد السلطان. ووصل الجيش الذي يترأسه السلطان بالقرب من بُودِينْ في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٣٦هـ (٣ أيلول/سبتمبر ١٥٢٩م).



حصار "فيينا"

---

(٤١) رسالة مكتوبة بخط السلطان وتوقيعه. (المترجم)

أتم الجيش العثماني استعداداته لحصار المدينة بينما كان السلطان يشرف على إعداد معسكره ويأمر جنوده بالسيطرة على أطرافها، ولما أوشك الجيش أن يقصفها بالمدافع، أبلغ دفاع القلعة أنهم سيسلمون المدينة بشرط الأمان لمن بداخلها، استسلمت المدينة بلا مقاومة في ٤ المحرم (٨ أيلول/سبتمبر) وكلّف السلطان سليمان خُسْرَوْ بَكْ أمير سَنْجَقْ "أَلْبَصَانْ (*Elbasan*)" مع خمسين من جنود الإِنْكِشَارِيّة بحماية بُودِينْ والمحافظة عليها. وقام بالصيد طوال يومين بجوار بُودِينْ. ثم رافق جنودُ الإِنْكِشَارِيّة وأحدُ قادتها "زابوليا" ليتوّجوه ملكًا على قصر بُودِينْ (١٤ سبتمبر). واللافت للنظر غيابُ السلطان سليمان عن مراسم الاحتفال هذه رغم كثرة مجاملته لـ"زابوليا"، وقلة عدد المشاركين فيها.

عندما كان السلطان سليمان في بُودِينْ قرّر التقدم إلى فيينا ليواجه فرديناند، وغادر بُودِينْ متجهًا إلى فيينا من طريق سلكه إبراهيم بَاشَا قبلَه بمسافة يوم واحد، ووصل الجيش العثماني في ٢٢ أيلول/سبتمبر إلى مدينة "أوفر (*Ovar*)" الصغيرة الواقعة عند الحدود النمساوية المَجَرية. وتم الاستيلاء على مدينة صغيرة يطلق عليها الألمان اسم "هونجاريش (*Hungarich*)"- آلتنبورج (*Altenburg*)". وظهر المهاجمون الأتراك بالقرب من فيينا ونجحوا في هزيمة بعض وحدات العدو وأخذوا منهم أسرى. واتضح نتيجة لاستجواب هؤلاء الأسرى أن فرديناند غادر فيينا ليجمع القوات من بلاده، وأنه انسحب إلى النمسا وترك عشرين ألف جندي مشاة وألفي فارس في القلعة. وبدأ الجيش العثماني يحتشد بالقرب من فيينا. وفي النهاية وصل السلطان أيضًا إلى فيينا وأقام خيمته في قرية "سيمرينج (*Simmering*)". وأخيرًا وجد الجيش العثماني نفسه أمام قلعة فيينا وجهًا لوجه، وهي مركز مهمّ لآل هابسبورج كما أنها من أشهر مدن أوروبا، فالاستيلاء على فيينا سيكون ضربة موجعة للنمسا حيث إنه سوف يسهل دخولها تحت الحكم العثماني مثل المَجَر. ولكن أمر فرديناند الذي أدرك هذا جيدا بتحصين فيينا وتقويتها، وأمر بحفر خنادق كبيرة بسور داخلي على ارتفاع خمسة أمتار بين بابي المدينة "شتوبن (*Stuben*)" و"كارنثير (*Karnther*)". علاوة على ذلك اقتلع أهالي النمسا الأجزاء الخشبية من

المنازل الموجودة في المدينة إزاء تأثير المدافع التركية واحتمال إمكانية إشعال الحرائق، ورفعوا أيضًا أحجار الشوارع والأرصفة حتى لا تصطدم بها قذائف المدافع. بالإضافة إلى ذلك فقد هجرها جزء كبير من المدنيين القاطنين بها قبيل وصول الجيش العثماني. ومن المؤكد أن حصار الجيش العثماني للمدينة بدأ في ٢٢ المحرم سنة ٩٣٦هـ (٢٧ أيلول/سبتمبر ١٥٢٩م). واتخذ اثنا عشر ألف جندي إنكشاري أماكنهم في الموقع الذي أقام فيه السلطان خيمته. كان أمير الأمراء "بَهْرَامْ بَاشَا" في مقدمة جنود الأناضول في القسم الواقع إلى وادي "شو يشات (*Schwechat*)" في الجانب الأيمن من هؤلاء الجنود، وكانت قوات إبراهيم بَاشَا في الجانب الأيسر من قوات الأناضول.

وكان معظم قوات المدفعية قد تمركزوا جنوب فيينا. وفضلا عن ذلك كانت قوات بَالِي بَكْ قد تمركزت على تلال "فينزبرج (*Wienerberg*)" وسفوحها المطلة على المدينة، أما خُسْرَوْ بَكْ فكان يتقدمهم في الأمام. وسيطر الأسطول العثماني على ضفاف فيينا على نهر الدنوب.

ذهب فرديناند إلى "كرمس (*Kerms*)" ليحشد القوى، وولّى "بفالا جراف فيليبه (*Pfalagraf Philippe*)" قيادة الدفاع عن "فيينا"، بيد أن القائد الذي لعب دورًا مهمًا في الدفاع عن المدينة هو "نيقولاس دي سَالْمْ (*Nicolas de Salm*)" الذي يبلغ من العمر سبعين عاما. أما الأسوار المقابلة لجبهة الصدر الأعظم التي هي أهم فرقة في القوات العثمانية فكان يرابط فيها أربعمائة فارس وأربعة صفوف؛ وكذلك كانت قوات المدافعين قد اتخذت وضع التحصينات المختلفة بين أبواب المدينة المتعددة. وأقاموا أيضًا حصونًا ترابية جديدة للدفاع عن المدينة، وثبّتوا الأوتاد على حافة نهر الطونة، وكان يوجد في المدينة ما يقرب من ثلاثمائة مدفع أيضًا.

أطبق الحصارُ في أواخر شهر أيلول/سبتمبر، وبدأ الأسطول العثماني أولًا بالتقدم في نهر الطونة بأربعمائة سفينة وقارب، وهدم جسور النهر، وبهذا قُطِع اتصال المدينة بالآخرين، ثم تبين أن القوات النمساوية قامت بهجمتين

مفاجئتين، وفي الحقيقة لم يحضر الجيش العثماني بسبب حلول فصل الخريف مدافع الحصار الضخمة لصعوبة نقلها؛ فأسرعوا بحفر الأنفاق والقنوات أسفل الأسوار، إلا أن النمساويين حفروا أيضًا أنفاقًا مضادة، فباءت محاولات العثمانيين في الأنفاق بالفشل، ففي ٢ تشرين الأول/أكتوبر حُفر نفق نحو كنيسة "سانت كلير (*St. Claire*)" في منطقة باب "كارتنر (*Kartner*)"، فأفشله النمساويون بآخر؛ واستمر الحصار هكذا: حفرٌ للأنفاق وقصفٌ بالمدفعية، وأخيرًا بدأت الاشتباكات، وفيما كان الجيش العثماني يستعد لهجوم شامل، بادر النمساويون أيضًا إلى أعمال واسعة النطاق من أجل هجوم مضاد مفاجئ للخروج من القلعة.

وخرج قسم من القوات النمساوية قوامَها ثمانية آلاف جندي من أبواب "كاينر (*Kainer*)" و"بورج (*Burg*)" و"كارتنر" مستفيدين من ظلام الليل، وخرج قسم آخر من المنطقة المجاورة لدير "كرمس" وطوّقوا الجيش العثماني ولكنهم تأخروا فلم يخرجوا حتى طلعت الشمس، فتكبّدوا خسائر فادحة أمام العثمانيين وعادوا إلى القلعة، ومع هذا لم تستطع القوات التركية التي طاردتهم الدخول لأنهم استطاعوا إغلاق أبواب القلعة.

وتعد هذه الهجمة المفاجئة أول وآخر هجمات النمساويين حيث لم يستطيعوا التجرؤ على مثل هذا الهجوم مرة ثانية، وتوالت المراحل التالية للحصار بالهجمات التي شنّها الأتراك الواحدة تلو الأخرى. ومنذ هذا الحين بدأ يظهر تأثير الأنفاق وطلقات (قذائف) المدافع رويدا رويدا. وهكذا تهدّم الحصن الترابي الموجود بجوار باب "كارتنر" بطلقات المدافع. وعقب ذلك تم تفجير الأنفاق المفتوحة إلى نفس الباب، وفتحت فجوات واسعة في الأسوار. وهجمت القوات العثمانية على هذه الفجوات، ونشبت في هذا المكان معارك حامية الوطيس. بل ومن خلال ذلك دخل عدة جنود أتراك من الفجوات، مع أنهم حاولوا رفع الراية على الأسوار إلا أنهم أخفقوا، وقبض عليهم على الفور وتم قتلهم. وأثناء الاشتباكات صار الجو باردًا، فهطلت الأمطار والثلوج، فبدأ

الجيش يعاني من نقص المواد الغذائية، فضلًا عن أن البرد والمطر حالا دون إرسال العشرين ألف جمل المحمّلة بالعتاد. ويدون في "رُزْنَامَة (*Ruznâme*)"[٤٢] التي أثبتت فيها أحداث الحرب أن إبراهيم بَاشَا قال:

"أصبح الجوّ غير مناسب لمواصلة القتال وبدأنا نعاني من نقص المؤونة" فالأفضل ترك الحملة".

وبدأت تظهر بعض التوترات والاضطرابات في الجيش العثماني أيضًا. الجنود الإِنْكِشَارِيّة بدؤوا يتصرفون في أثناء حصار "فيينا" بفتور همة وبلا حماس. وأخيرا لم يسفر الهجوم الشامل الذي شنّ في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٥٢٩م عن نتيجة مرجوة. بيد أنه فتحت فجوات عديدة أثناء هذا الهجوم بل أصيب قائد النمساويين الشهير نيقولاس دي سَالْمْ بجروح خطيرة. كان هذا الهجوم هو الأخير في حصار فيينا الأول. واستشار السلطان الصدر الأعظم والوزراء وأمر برفع الحصار، وتم جمع الخيام في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر وبدأ الجيش العثماني استعدادات العودة

استمر الحصار سبعة عشر يوما ثم رفع بأمر السلطان، إذ الحصار لم يكن يستهدف هذه البلدة مباشرة، ومرد رفعه وفقًا لكتب التاريخ العثمانية إلى أمرين:

* أولهما عدم وجود فرديناند في المدينة،

* وثانيهما طلب أهالي فيينا الأمان.

ومن المحتمل أن السلطان سليمان أخذ بالرأي القائل: حتى وإن فتحت هذه البلدة فالسيطرة والحفاظ عليها أمر صعب كما هو الحال في بُودِينْ، فضلًا عن الطقس البارد هناك، وفي ١٦ تشرين الأول/أكتوبر تحرك السلطان إلى ناحية بُودِينْ، ووصل إلى هناك بعد تسعة أيام.

واستقبل السلطان في هذا المكان من قبل "زابوليا" ولم يتوقف كثيرا

(٤٢) رُزْنَامَه: السجل الذي تدون فيه الدخول أو النفقات أو الأحداث اليومية في الدولة العثمانية. (المترجم)

في بُودِينْ، ووصل إلى إسطنبول في ١٦ كانون الأول/ديسمبر، وولّى "كريتي" عليها ومعه فرقة من جنود الإِنْكِشَارِيّة، وكان "زابوليا" يدفع الجزية السنوية ويحظى بالحماية والرعاية من قبل العثمانيين. وفي تلك الأثناء اجتاز المهاجمون الأتراك جبال الألب ودخلوا ألمانيا، ووصلوا إلى "رجنسبورج (*Regensburg*)" أو "راتيسبون (*Ratisbonn*)" في "يافيرا (*Bohemya*)" وذهبوا إلى مدينة "برون (*Brunn*)" في بوهيميا فألحقوا بتلك المدن أضرارًا جسيمة وعادوا بكثير من الأسرى، وهكذا أمّنوا الجيش العثماني ضد المخاطر التي يمكن أن تأتي من الخلف.

وعلى هذا النحو عاد الجيش العثماني الذي تكبّد خسائر قوامها خمسة عشر ألف جندي تقريبا وأخفق أمام أسوار فيينا التي حاصرها سبعة عشر يوما. إلا أن هذا الفشل نجم عن الأحوال الجوية أكثر من القدرة الحربية للجنود العثمانيين ونقص العتاد والأدوات الفنية اللازمة من أجل حصار على نطاق واسع وعدم كفاية المؤونة والمهمات والعتاد الحربي. فمثلا يكتب جلال زاده أن شتاء هذه البلاد قارس وأن الأمطار المستمرة أعاقت الجنود ومنعتهم من القيام بمهامهم.

وفضلا عن ذلك لم تنقل مدافع الحصار الضخمة والمؤثرة وسائر العتاد الفنية (الهندسية) لأن العثمانيين لم يستهدفوا حصار فيينا بل كان هدفهم القيام بمعركة حامية منظمة مع فرديناند. وعدا ذلك كان جنود الإِنْكِشَارِيّة قد تصرفوا بفتور همة وبلا حماس في هذه المعركة حسبما ذكر آنفا، وكانت فيينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون في أوروبا، ثم إنهم عززوا حكمهم في بلاد المَجَر، ولم يبق ثمة احتمال لهجوم مضاد، فالنمسا وشمال المَجَر قد أُنهِكتا.

وفي نهاية الحملة فُتحت بلاد المَجَر، وتقرر أنها تتمتع بحكم ذاتي وتتبع الدولة العثمانية عدا شمال وغرب المَجَر؛ وبهذا تصبح منطقة عازلة بين القوى الكبرى، وقد أيقظ فشل فيينا أملا جديدا لدى "كارل الخامس" وحلفائه، وشعر شارلكان بضرورة أن يتضامن ويتكاتف مع حلفائه. لذلك أرادوا

أن يستميلوا البندقية، إلا أن البنادقة رفضوا التحالف مع الإمبراطور خوفًا من عداوة العثمانيين، بل إنهم جددوا المعاهدة معهم، وضَغَطَ الساسة المنافقون من البنادقة على زابوليا ليبرم هو و"سيجسمون (*Sigismund*)" ملك بولندا معاهدة مع "كارل الخامس" و"فرديناند"، وبذلك يزول عن زابوليا وصف "الخائن" إلا أن هذا لم يتحقق.

أدى حصار الجيش العثماني في حقيقة الأمر إلى اضطراب شديد في أوروبا، وكان الرأي العام ينذر بأن المسيحية كلها في خطر كبير، حتى إن "لوثر (*Luther*)" زعيم حركة البروتستانت وكان ينظر إلى الأتراك في البداية بإيجابية أعلن أن الأتراك هم العدو الرئيسي للمسيحية. قال "لوثر":

"الحرب ضد الأتراك مثل رفض الخضوع لله الذي يعاقب ذنوبنا بسوط الترك".

وألف كتابا سمي "بشأن الحرب ضد الأتراك"، وكان يريد حشد المسيحيين إلى جانب "كارل الخامس" -الذي عارضه بشدة قبل ذلك- وخوض حرب لا هوادة فيها ضد الأتراك.

وفي الحقيقة كان يستطيع التخلص إلى حد ما من التناقض بين أفكاره السابقة واللاحقة فهو يرى أن العثمانيين دجّالون، ومقاومة الدجال مشروعة، أما مقاومة دجاجلة الجيش العثماني فهي مهمة وطنية وليست واجبًا دينيًا، ففي محاربتهم حماية مشروعة للنفس والبيت والأهل، ومع ذلك لم يكن من الصواب القيام بهذا من أجل العقيدة فقط ومن أجل الدفاع عن الكتاب المقدّس أو بروح الحملة الصليبية. لأن الحملة الصليبية كانت تعني عصيان الله، ومخالفة رسالة عيسى عليه السلام. كانت آراؤه هذه في اجتماع مجلس "السباير (*Speyer*)" تلوّح بمحاربة أمراء البروتستانت مع الملك فرديناند، فالأتراك إذا استولوا على ألمانيا كلها حتى نهر "الراين (*Ren*)"، صاروا خطرًا كبيرًا على المسيحية كلها الكاثوليك والبروتستانت؛ وكما قيل إن لوثر عندما سمع كلام السلطان سليمان الذي اهتم به وتلقى معلومات بشأنه "ليته أكثر شبابا" ويدخل تحت حمايتي" تنهد وصلّب وقال بسخرية:

"حفظنا الله من ولي النعمة (المحسن) طيب النفس هذا".

غير أن هذا الضغط العثماني على الإمبراطورية أراح فرنسا والبروتستانت كثيرا في الحقيقة، وكان البروتستانت قد فرضوا عقيدتهم ووجودهم داخل الإمبراطورية، وأصبحت هذه خطوة جيدة من أجل نشر العقيدة البروتستانتية. ومن جانب آخر وقّع ملك فرنسا عندما كان الجيش العثماني في بلاد المَجَر على اتفاقية مع الإمبراطور (١٣ آب/أغسطس سنة ١٥٢٩م).

أما البروتستانت فقد استغلوا حاجة كارل السادس إلى مؤازرتهم ضد العثمانيين المنهمكين في الحملة على هابسبورج، وفرضوا سيطرتهم على الإمبراطوريّة.

وأخفت فرنسا معاهداتها مع العثمانيين لأن الرأي العام كان ضد العثمانيين، ودخلت في الاتفاقية المسيحية ضد العثمانيين لتبرئ ساحتها، ولتحافظ على مكانتها في أوروبا.

حملة المجَر الثالثة: التحرك نحو "كارل الخامس"

أمر السلطان سليمان الذي عاد إلى إسطنبول بإقامة احتفالات ختان أبنائه مصطفى ومحمد وسليم بمهرجانات استمرت لأسابيع. كانت الاحتفالات التي بدأت في ١٨ حزيران/يونيو ١٥٣٠م وسيلة "مشروعة" بمثابة تقوية أبهته وتعزيز عظمته لدى الشعب. وعرضت في هذه الاحتفالات الخيام الكبيرة والأشياء التي تم الاستيلاء عليها والتماثيل التي نقلت من بُودِينْ. وشارك جميع أركان الدولة في الاحتفال كما تم أيضًا إرسال بطاقات الدعوة إلى حكام الدّول التابعة للدولة العثمانية[٤٣]؛ واللافت للنظر هو موافقة هذه الاحتفالات الفاخرة للذكرى العاشرة للسلطنة، وأثناء الاحتفال تم عقد النكاح على "خرّم سلطان"،

(٤٣) الدولة التابعة: الدول التابعة شكلًا للدولة العثمانية وقبلت حكمها ولكنها حرة في شؤونها الداخلية مثل الأفلاق - البغدان، وتعتبر القرم أيضًا في هذا الصنف، وكذلك تعتبر الدول التي تدفع الجزية (الخراج) للعثمانيين في إطار هذا المضمون. (المترجم)

وبهذا لم تَعد جارية بل غدت سيدة حرة سلطانة؛ وهذه سابقة في التاريخ العثماني، وقوّى السلطان علاقته بـ"خرّم" التي أنجبت له الأبناء، وأصبحت خرّم منذ هذا الحين ذات نفوذ قوي في الحَرَم والقَصْر.

وبعد فترة وجيزة كان من الواضح أن هذا سيؤدي إلى نزاع وصراع بينها وبين إبراهيم بَاشَا. وبدأت الأيام الصعبة بالنسبة للسلطان سليمان، ووقع بين خيارين إما صديقه الحميم ورفيق سلاحه إبراهيم وإما زوجته خرّم سلطان التي أحبها وتعلق بها كثيرًا، مضت ستة أعوام على ذلك.



منمنمة لمخطوطة "سليمان نامه" المفصلة (تاريخ السلطان سليمان) تصوِّر السلطان سليمان وهو يشهد مراسم ختان ولديه الأمير بايزيد والأمير جهانكِير بقاعة النافورة في قصر "طوب قابي"

وتشاور مع إبراهيم بَاشَا مرة أخرى في إسطنبول حول الوضع السياسي إثر عودته من حملة فيينا؛ وكان وفود السفراء حينئذ مؤشرًا بأن مسألة المَجَر لم تحلّ بعد كما ينبغي.

كانت ادعاءات فرديناند، والضغط على بُودِينْ (٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٥٣٠م)، وتصرفات "كارل الخامس" تدفعه إلى حل مسألة المَجَر من أساسها، والقضاء على الإمبراطورية الألمانية والتحرك بغية إقامة القوة العثمانية تمامًا في وسط أوروبا. ولكنه أدرك أنه لن يستطيع تحقيق هذا بصورة تامة. كان ثمة تهديد جديد يبدو وكأنه سوف يؤثر في الحملة. ففي خلال ذلك تبين أن "فرديناند" الذي تخلى عن عرش المَجَر أقدم على عدة مبادرات دبلوماسية قبيل الحملة، حيث وصل إلى إسطنبول في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٥٣٠م وفد سفارة فرديناند الذي تشكل من أربعة وعشرين شخصًا وكان على رأسهم "نيقولاس

يوريشتس (*Nicolas Jurischitz*)" من فرسان الكروات وقائد مدينة "غونس (*Guns*)"، وفارس ايستريا "جوزيف فون لامبرج (*Joseph von Lamberg*)".

وقد تم استقبال السفراء أولا من قبل إبراهيم بَاشَا. وأظهر السفراء في البداية موقفا حذرًا من الإفصاح عن نواياهم.

وأخبروا إبراهيم بَاشَا بسبب حديثه القاسي والحازم بأنهم جاءوا من أجل عقد الصلح. وذكر إبراهيم بَاشَا بعد ذلك للسفراء أن السلطان خرج إلى الحملة من أجل البحث عن فرديناند، وأنه عندما لم يستطع العثور عليه في بُودِينْ وصل بالقرب من فيينا، وأن فرديناند كان يهرب دائمًا من أمام العثمانيين، وأن السلطان لم يأت لفتح فيينا ولكن من أجل التجوال وأنه دمر أسوار فيينا بغية ترك عبرة وذكرى من زيارته هذه، وأنه لم يأخذ معه المدافع الثقيلة وعاد بسبب الأجواء الباردة التي جعلت مثل هذه الحملة العسكرية مشكلة صعبة، وأنه توج عند عودته "جون زابوليا" ملكًا على المَجَر. علاوة على ذلك ذكر أن فرديناند ليس له صفة سوى كونه أحد ولاة كارل الخامس ملك إسبانيا ولذلك ليس له أي حق في بلاد المَجَر. ولم يمتنع أيضًا عن أن يوضح ويروي للسفراء ما يفكر فيه ويلاحظه بشأن كارل الخامس: فقد ذكر إبراهيم بَاشَا أن "كارل" قام بحملة إيطاليا بقصد الحصول على المال من فرنسا وأنه اعتبر نفسه إمبراطورا بارتدائه تاجًا على رأسه من قلنسوة البرنس وصرّح للسفراء أنه مالم يعترف بأن مملكته قد منحت لـ"زابوليا"، ومالم يجعل فرديناند يتخلى عن حبه الشديد للمجر وطلبها فلن يكون الصلح ممكنًا.

وعلى ذلك عرض سفراء النمسا المال على إبراهيم بَاشَا، أما رد إبراهيم بَاشَا فمثير للاهتمام والإعجاب:أشار إبراهيم بسبب هذا العرض بأصبعه إلى برج "يَدِي قُولَه" وذكر أن هذا المكان مملوء بالذهب، وبناءً عليه فإنه لايحتاج إلى أموالهم، وأن الوفد السابق عرض عليه مليون فيلوري مقابل حماية بلادهم، فأشار بأنه لا شيء من الهدايا يحول دون أهداف السلطان وقال:

> "وليس لي أن أترك لكم أرضًا برشوة تقدمونها بل واجبي أن أساعد السلطان في فتح البلاد".

فاعتذر السفراء عن هذا العرض وطلبوا توسط إبراهيم بَاشَا من أجل إمكانية مقابلة السلطان والتفاوض معه.

وأخيرا وافق السلطان سليمان على مقابلتهم في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٥٣٠م.

قدم السفراء إلى السلطان أوراق الاعتماد التي في أيديهم وورقة تحوي مطالب فرديناند، والتمسوا أن يكون الرد في أقرب وقت.

وبعد يومين من هذا اللقاء استقبل إبراهيم بَاشَا السفراء مرة ثانية وأبلغهم أن مطالبهم قد رفضت من قبل السلطان، وهو ترك المَجَر لفرديناند مقابل دفع الجزية وقال لهم:

"لا يمكنكم استعادة المَجَر بعد أن فتحناها مرتين بالسيف".

واضطر السفراء بناءً على هذا القرار إلى العودة حاملين معهم رسالة مكتوبة موجهة إلى فرديناند.

وفي أثناء استمرار هذه المباحثات بدأ فرديناند يتحين الفرصة المناسبة من أجل الهجوم على المَجَر. وبعد فترة اقتنص هذه الفرصة: إذ تمرد حاكم "زِيجَتْوَارْ" (*Zigetvar*) على "جون زابوليا". وزحف زابوليا من أجل تأديبه بعشرة آلاف جندي مجري وثلاثة آلاف جندي إنكشاري كانوا متواجدين في بُودِينْ وغيرهم من الجنود. وفي تلك الأثناء انطلق فرديناند أيضًا إلى بُودِينْ. ووصلت قوات فرديناند تحت قيادة الجنرال "فون روجندروف (*Von Roggendrof*)" بالقرب من بُودِينْ وحاصرت المدينة في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٥٣٠م.

عندما سمع قاسم بَاشَا الذي كان موجودا في عملية "زِيجَتْوَارْ" العسكرية هذا الأمر عاد إلى بُودِينْ مع قواته وكسر حصار النمسا ونجح في الدخول إلى قلعة بُودِينْ؛ فصارت جنود المَجَر التابعة لزابوليا وقوات قاسم بَاشَا تدافعان عن بُودِينْ؛ وكان المدافعون عن القلعة يقاومون هجمات "روجندروف". وفي تلك الأثناء سمع روجندروف بمجيء المهاجمين الموجودين تحت إمرة

يحيى بَاشَا زاده محمد بَكْ أمير سَنْجَقْسَمَنْدِرَه وخُسْرَوْ بَكْ أمير البُوسْنَة لنجدة بُودِينْ فرفع الحصار وانسحب تحسبًا لوقوعه بين نارين، وفضلا عن ذلك فقد لعب انتشار شائعة أن الصدر الأعظم قادم بجيش كبير دورًا مهمًا في رفع الحصار. وانسحبت القوات النمساوية بسرعة وتركت أسلحتها الثقيلة. وعقب ذلك وصل المهاجمون إلى بُودِينْ وأغاروا على الأراضي التابعة لـ"فرديناند" وعادوا بكثير من الأسرى.

وهكذا وحسبما ذكر آنفًا كان السلطان سليمان الذي قرر القيام بالحملة بسبب تصرفات فرديناند هذه ـ يريد في الوقت ذاته تصفية حساباته مع إمبراطور ألمانيا. وأعلن السلطان سليمان في هذه المرة ان هدفه هو "كارل الخامس" إمبراطور هابسبورج مباشرة.



لوحة شهيرة رسمها الرسام "تسيانو واسيللي (*Tziano Vecellio*)" البندقي وفيها إمبراطور ألمانيا، وملك إسبانيا شارل الخامس وقد تدرعا وامتطيا الخيل

ونوى إنهاء هذا الأمر بالقيام بمعركة حامية الوطيس مع "كارل الخامس" منافسه على رئاسة العالم بزعمه، وتعبر كتب التاريخ العثماني عن هذه الحملة على "كارل الخامس" بـ"غزو ملك إسبانيا"؛ غادر السلطان سليمان إسطنبول في ١٩ رمضان سنة ٩٣٨هـ (٢٥ نيسان/أبريل ١٥٣٢م) وشهد العيد في أَدِرْنَه، ووصل إلى نيش في ١٣ حزيران/يونيو، وكان سفراء فرديناند قد وصلوا قبله إلى المعسكر العثماني، وكرروا عروضهم مرة ثانية، كان هؤلاء السفراء ضمن بَعثة أخرى تُسمَّى "لامبرج (*Lamberg*)" و"فون نوغارولا (*von Nogarola*)"، وكانت التعليمات الموجهة إلى السفراء هي تحقيق وضمان مد الهدنة التي أجريت قبل فترة وجيزة بين زابوليا فرديناند في "فيشاجراد (*Vişegrad*)". بالإضافة إلى ذلك كانوا ينوون عرض مبلغ سنويا من ٢٥ ألف أوقية إلى مائة ألف أوقية تدفع كهدية إذا ما أعطى السلطان سليمان المَجَر إلى فرديناند ولكن رفضت هذه العروض من قبل السلطان.

وفي حزيران/يونيو وافق السلطان سليمان على مثول السفراء بين يديه وتأثروا كثيرا جدًا بأبهة خيمة السلطان وعظمتها، كان يوجد بجانب العرش الذهبي منضدة صغيرة خاصة عليها تاج بديع فخم تقدر قيمته بمائة وخمس عشرة ألف أوقية تم صنعه في إيطاليا. كانت الجواهر والأحجار الكريمة التي ترصع العرش والأسلحة المعلقة بجواره تبهر الأبصار. وقد مر السفراء في أثناء وصولهم إلى الخيمة من بين جنود الإِنْكِشَارِيّة حاملي البنادق الذين اصطفوا صفوفا منتظمة. وكتب السفراء في تقاريرهم مايأتي:

"لما وصلنا لقَّموا جميعًا بنادقهم، وأطلقوا النار بالقرب منا وكأنهم يسخرون منّا".

وقبل أن يصل الجيش العثماني إلى بَلْغِرَاد انضم إليه التتار الذين أرسلهم خان القِرْم. وعندما عبر الجيش العثماني سهل سِيرْمْفي ٢٨ حزيران/يونيو علموا ان السفير الفرنسي "رينسون" وصل إلى المعسكر واستقبله السلطان بجفاوة بالغة. ويتضح فيما بعد أن ملك فرنسا أرسل رينسون من أجل إقناع الجيش

العثماني بالعدول عن الحملة. وأشارت المصادر الفرنسية إلى أن السلطان أراد معرفة موقف ملك فرنسا: هل معه أم ضده؟... لا سيما أن السلطان رأى في موقف "فرانسوا الأول" ونأيه بنفسه في سنة ١٥٣١م ما يدعو للأسف، وبينما كان سفير البندقية في فرنسا يرسل محادثات السلطان والسفير إلى حكومته كتب ما مفاده: إن السلطان وهو يدّعي صداقة عريقة مع فرنسا يعجب من استشفاع رينسون لرجل أساء إلى ملك فرنسا.

وعندما بدأ الجيش بالتقدم إلى أراضي "سِيرَمْ" وصل شخص مجرى يدعى "بيريني بتر (*Perényi Péter*)" إلى حضرة السلطان. وقع هذا الشخص أسيرًا في أيدي العثمانيين أثناء حصار فيينا، ونجا فيما بعد عن طريق مبادلة الأسرى. ومثل بيريني بين يدي السلطان بغية الحصول على بعض المنافع والمصالح الشخصية. من ناحية ثانية كان يجري محادثات في إسطنبول منذ سنتين بواسطة "كريتي"، وكان يريد أن يفرض نفسه كأمير تابع للعثمانيين، وأن يجلس على عرش المَجَر.

ولهذا قدّم كثيرًا من الهدايا والأسرى، وبهذا تجرأ على المثول بين يدي السلطان في "أوسك (*Ösek*)" مع ٦٠٠ رجل، ولكن رفض طلب بيريني هذا، كما اتضح أن هذا الرجل الذي تبين نفاقه قد عقد اتفاقا سريا مع فرديناند، فقبض عليه وتم حبسه.

بدأ الجيش العثماني التقدم إلى بلاد فرديناند، وكان هناك الكثير من المدن الصغيرة والكبيرة في هذه المنطقة لا تخضع للحكم العثماني. وقد تمكن كل من يحيى بَاشَازاده محمد بَكْ والغازي خُسْرَوْ بَكْ أمير البُوسْنَة من الاستيلاء على هذه الأماكن. وكان يوجد بين هذه المدن الكبيرة والصغيرة قلاع أيضًا مثل: "أرشاق (*Egerszeg (Erşak)*"، و"سيكلوس (*Siklos (Şikloş)*"، و"بابو جقا (*Babucsa (Baboçka)*"، و"بلوار (*Belovar (Belvar)*"، و"بزرينجة (*Berzeneze (Bezerince)*"، و"فوتوش (*Wutuseh (Vutuş)*"، و"قابولنا (*Kapolna)*"، و"قانيجة (*Nagykanisza (Kanije)*"، و"قايارنق (*Kapornak (Kabarnak)*"، بـ"وليسكا

(*Poeleoske*)". وكذلك أضيفت إليها قلاع أخرى. وبالرغم من دخول الجيش العثماني بلاد المَجَر وتقدمه من الأراضي التابعة لفرديناند إلا أنه لم ير أي أثر من جيش الإمبراطورية. وحاصر السلطان "غوش (*Güns*)" (جانز) الواقعة على مسافة ستين ميلا إلى فيينا، وانتظر مجيء "كارل الخامس" إليه. وكان جيش الإمبراطورية الجرّار وصل إلى مشارف "بريجتنو" على مقربة من فيينا.

وتم اتخاذ كل التدابير اللازمة للدفاع عن قلعة "جانز" الحصينة، المسورة بخنادق عميقة؛ وعين يحيى بَاشَازاده بَالِي أُوغْلُو محمد بَكْ أمير سَنْجَقْسَمَنْدِرَه على مقدمة الجيش العثماني؛ وصل في ١٠ آب/أغسطس بالقرب من "جانز" وأطلق عليه حرس القلعة نيرانًا كثيفة أثناء مروره بها.

ووصل على إِثْرهم الجيش بقيادة السلطان وقرر حصار القلعة؛ وفي الحقيقة لم تنقل المدافع الضخمة الثقيلة اللازمة لأن الحملة كانت من أجل تدمير مملكة فرديناند وشن معركة حامية الوطيس مع الإمبراطور. وأمر إبراهيم بَاشَا بوضع المدافع الصغيرة على مكان مرتفع يطل على القلعة، ومن جانب آخر تم حفر الخنادق وحفر الأنفاق إلى أسفل الأسوار، ولكن نبع المياه منها حال دون إتمام الحفر إلا نفقًا واحدًا أُضرمت فيه النيران، فتهدمت بعض الأسوار، أما الهجوم التالي فلم يسفر عن شيء.

وتم تفجير نفقين آخرين أمكن حفرهما بعد فترة، وتهدمت بهما الأسوار، وقتل جنود القلعة، ولكن لم يتمكن أحد من عبور خندق كان يقع خلف هذه الأسوار، فاعتمدوا السير من فوق الخنادق بعد ملئها بالحطب وأغصان الأشجار الرقيقة، ولما كانت المنطقة مكتظة بالأشجار أمكن جمع كَمّ هائل من الحطب في الخنادق بلغ ارتفاعه قِمم الأسوار وصار كأنه حصن يصد نيران العدو، كان المدافعون عن القلعة يطلون حِزم القمح والشعير بالقطران من أجل حرق أكوام الحطب فأشعلوها وألقوا بها عليها. إلا أن المدافعين عن القلعة الذين تقطعت بهم الأسباب بعد مدة اضطروا إلى تسليم القلعة لأن الجنود العثمانيين استمروا في هذا العمل دون ملل أو كلل.

وطلب قائد القلعة "نيقولاس يوريشتس (*Nicolas Jurischits*)" الذي وصل إلى إسطنبول سفيرًا لفرديناند فيما مضى الأمان، واستحوذ الأتراك على القلعة في اليوم السابع عشر من الحصار في ٢٨ آب/أغسطس سنة ١٥٣٢م.

كان مقر قيادة السلطان يوجد في مكان قريب من القلعة. وتلقى السلطان خبر الاستيلاء على القلعة ووصل إلى مكان على مسافة يوم واحد من القلعة، وقدم الهدايا إلى الصدر الأعظم وسائر الجنود.

وبعد الاستيلاء على قلعة "جانز" وافق السلطان مرة ثانية على مثول "لامبرج (*Lamberg*)" و"نوغارولا (*Nogarola*)" بين يديه وهما سفيرا فرديناند اللذان تباحثا مع السلطان من قبل في بَلْغِرَاد، ولم يسمح لهما بالعودة واضطرا إلى مرافقة الجيش العثماني طَوال شهرين، وشهدا حصار قلعة "جانز"، وتسلما رسالة السلطان الموجهة إلى فرديناند، كانت هذه الرسالة تدعو فرديناند إلى الحرب لأن السلطان بالرغم من أنه حاصر فيينا في سنة ١٥٢٩م وقام بالحملة الثانية في الأراضي الخاضعة لفرديناند إلا أن فرديناند لم يتصدَّ للسلطان أو يقاومه. كان السلطان سليمان يريد في رسالته هذه أن يستفز فرديناند ويود أن يتصدى له ويقاومه بأسرع ما يمكن.

ووفقًا للمؤرخ بَجُويْلُو تضمَّن نص الرسالةإلى فرديناند:

> "تدّعي البطولة والشجاعة دائمًا، وتزعم أنك فارس الميدان، كم داهمتك وتصرفت في ملكك كما أريد دون أن تقاوم أنت ولا أخوك، قبحك الله، كيف تدعي السلطنة وحكم البلاد؟ ألا تستحي من جنودك بل من زوجتك، فالمرأة قد تثور أما أنت فلا، إذا كنت رجلًا فلتأت إلى الميدان، ليقضي الحق سبحانه وتعالى أمرًا كان مفعولًا؛ موعدنا في صحراء "بج (*Beç*)" لننظر لمن ستؤول السلطنة، وعندئذ تقَرّ أعين الرعية المساكين، وإلا فالبطولة ليست مكرًا كمكر الثعالب عندما يغيب الأسد عن الغابة، فإن نكصت هذه المرة وأبيت السجال فعليك بمغزل النساء، إلا أنك لن تنسج به تاج السلطنة ولن تتغنى بالبطولة".

واستطاع السفراء توصيل رسالة السلطان هذه إلى فرديناند في ٢ أيلول/ سبتمبر، إلا أنه لم يظهر في الميدان لا هو ولا "كارل الخامس" في خلال هذه الفترة. وحسبما ورد في قيد بَجُوِيْلُوأ يضًا، جمع الإمبراطور ثمانين ألف جندي مشاة وأربعين ألف جندي خيالة (فارس)، ولكن لم يستطع أن يتصدى للسلطان ويقاومه بسبب الجوع والقحط في بلاده.

وفي حقيقة الأمر كان فرديناند وشارل يتجنبان شر معركة حامية مع السلطان وكانا يحشدان القوات في المواقع الحصينة، ويحاولان شغل الجيش العثماني وخداعه وإنهاك قواه وإبادته؛ وهكذا حصنت القوات الموجودة تحت قيادة "بارون جون كاتشينز (*Baron Johann Katzianer*)" هذا المكان إزاء حصار ثانٍ محتمل للسلطان ضد فيينا. ورأوا أن ينتظر الجيش في مدينة "لينز" عند مسافة مائة وخمسين كيلومترا من هذا المكان.

واصل الجيش العثماني عقب الاستيلاء على "جانز" عمليته العسكرية. وبعد ذلك استسلمت مدينة "سوبيون (*Sopion*)" بلا مقاومة وهي مدينة تحتوي علي عديد من الكنائس والقلاع وكثيرة من حيث عدد السكان. وعبروا منها إلى أراضي الألمان للوصول إلى أقرب نقطة من فيينا، وظن النمساويون أن الجيش العثماني سيزحف إلى فيينا إلا أن الجيش عبر إلى "إيستريا" حتى بلغ إلى مشارف "غراز (*Graz*)"، ولم تتم محاولة الاستيلاء على هذا المكان لأنه قلعة حصينة إلى حد ما.

وتم بعد عبور نهر "الموره (*Mur*)" الوصول إلى وادي "درافا (*Drava*)" بالقرب من مدينة "ماربورج (*Marburg*)"، وأقام السلطان معسكره في هذا المكان (١٧ أيلول/سبتمبر ١٥٣٢م). وأقيم جسر على نهر درافا، وعبره الجنود وبدؤوا التقدم إلى جهة الجنوب.

وبعد دخول الجيش إلى أراضي "سلوفيينا (*Slovenya*)" عرضت مدن كبيرة وصغيرة فيها الولاء، ومنها مدينتا "بودغوغونجه (*Podgogonce*)" و"زاغرب (*Zagreb*)".

وفي تلك الأثناء تقدم قاسم بَكْ من المهاجمين العثمانيين مع اثني عشر ألف مهاجم إلى "بادن (*Baden*)" الواقعة بالقرب من فيينا، ثم عاد حينما علم أن السلطان ذهب إلى "ايستريا (*İstiria*)"، وفي أثناء ذهابه إلى هذه الجهة وقع في كمين قوات العدو واستشهد، إلا أن فرق المهاجمين الأخرى قاومت وألحقت أضرارًا بالغة بمحيط هذه المنطقة، وبعد أن دخلت الجيوش العثمانية إلى أراضي سلوفيينا، انفصل إبراهيم بَاشَا في ٢٧ أيلول/سبتمبر عن الجيش لحماية الجيش من الخلف من أجل التقدم إلى جهة "بوشيفا".

أما السلطان فقد تحرك إلى بَلْغِرَاد عن طريق "أوسك". وفي خلال هذه الفترة يتبين أن إبراهيم بَاشَا أرسل في "لاغوفيتس (*Lagowitz*)" خطابا موجها إلى فرديناند مع أسير يدعى "أندريه شتادلر (*André Stadler*)". ويشرح في هذا الخطاب لماذا أقيمت الحملة، وسخر من جبن فرديناند وخوفه.

وفي النهاية التقى السلطان والصدر الأعظم في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر.

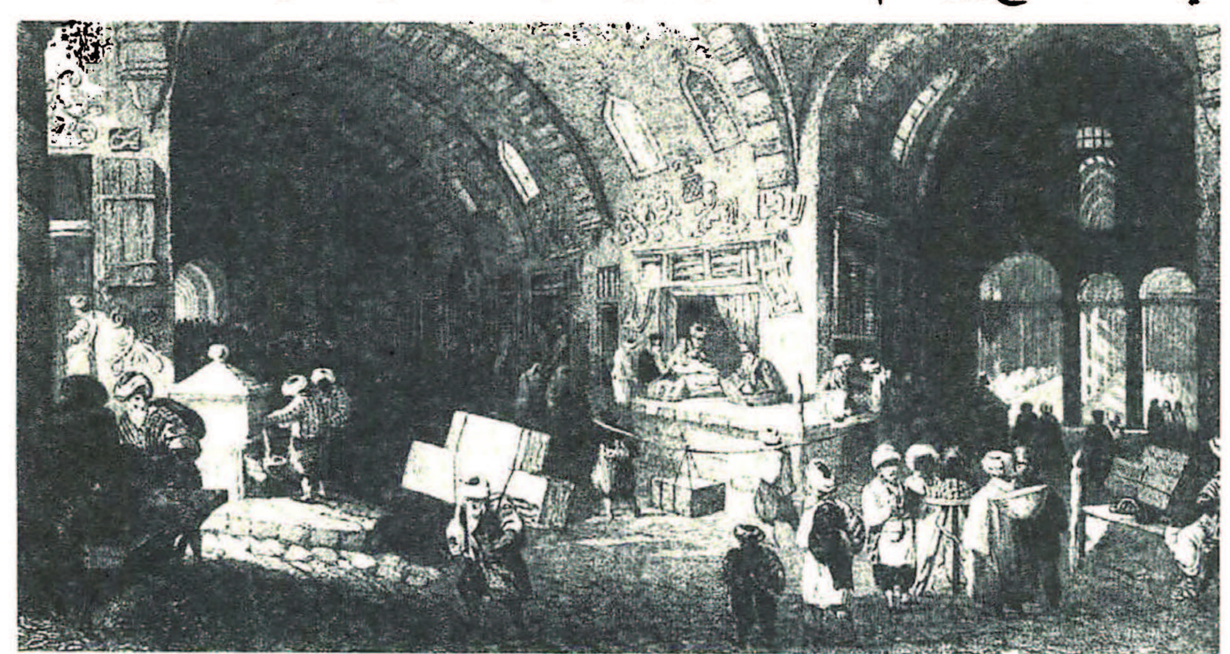
وتم عقب اجتماع الديوان في هذا المكان الإنعام على كبار رجال الدولة وإرسال خطابات النصر إلى جميع أنحاء البلاد. وكتب السلطان كذلك خطابًا موجها إلى دوق البندقية وكلف يونس بَكْ مترجم الديوان بنقل هذا الخطاب. كان يونس بَكْ وهو من مواليد "مودون (*Modon*)" في "مورة (*Mora*)" ويعرف اللغة اللاتينية جيدا قد زار البندقية في سنة ١٥١٩م. فتوصل البنادقة بما جمعوه من معلومات إلى أن والده "جورجيوترنوتي (*Giorgio Taroniti*)"، ونشط يونس بَكْ في رحلته الثانية سنة ١٥٢٢م بإقامة علاقات تجارية هناك، وعقب ذلك قدم في زيارته الثالثة إلى مجلس شيوخ البندقية خطاب الفتح المتعلق بدخول السلطان سليمان بُودِينْ أما الآن فقد كتب في الخطاب الذي نقله أن عودة السلطان كانت تستند إلى جبن فرديناد وخوفه وعدم تصديه للسلطان ومقاومته، وتم الحديث أيضًا عن القلاع التي تم الاستيلاء عليها في الحملة.

وما تسميه كتب التاريخ العثماني بحملة "آلمان" هدفها تهديد العدو وتعزيز الحكم العثماني في المَجَر أكثر من كونها عملًا عسكريًّا، ولم تستطع جيوش

الإمبراطورية الإقدام على أي عملية عسكرية مضادة إزاء الجيش العثماني الذي دخل أراضيها. غادر السلطان بَلْغِرَاد وعندما وصل إلى فِيلِبَة عقد اجتماعًا مع حكام القِرْم وأمرائها، وحل الخلاف بينهم بشكل قاطع، وعُيّن حاكمًا على القِرْم أحد المشاركين في الحملة، وهو صاحب كِيرَايْخان نجل منجلي كِيرَايْخان.

وعقب ذلك تمّ استقبال سفير بولندا وفي اللقاء وافق السلطان على عرض مد الهدنة بين الدولتين. واستُقبِل السلطان بالاحتفالات والمراسم في كل مكان يمر به طوال الطريق، ودخل إسطنبول في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٩٣٩هـ (٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٣٢م).

وأقيمت الاحتفالات خمسة أيام وخمس ليال في إسطنبول أيضًا بسبب عودة السلطان والجيش من حملة آلمان، وتم ترتيب وسائل الاحتفال المتنوعة. وغيّر السلطان ملابسه متنكرا في القصر وفي أثناء اللهو والطرب وتجول في المدينة مع إبراهيم بَاشَا وذهب إلى السوق المغطى وفتش محالّه وبضائعه.



السوق المغطى

وفي تلك الأثناء كانت تقع بعض الأحداث السياسية الجديدة في البحار حيث وصل أسطول إمبراطورية هابسبورج بقيادة "أندريا دوريا" إلى سواحل "المورة (*Mora*)" واستولى على "كورون (*Koron*)"، وأنزل القوات على سواحل "باتراس (*Patras*)" (باليابادورا (*Balyabadra*)) و"إينَة بَاختي (*İnebahtı*)". واقتضى هذا

الوضع ضرورة تقوية الأسطول العثماني وتعزيزه في البحر الأبيض المتوسط. كانت قلعة "كورون" التي دخلت تحت الحكم العثماني في عهد بايزيد الثاني هدفًا لهجمات أحد الأساطيل التي كانت تحت قيادة "أندريا دوريا" الذي قام بنشاطات وأعمال باسم "كارل الخامس" في أثناء انشغال العثمانيين بحملة آلمان، كان أندريا دوريا قائد الأسطول البحري لعدة دول في عقود مختلفة وللإمبراطور أخيرًا، وقد وصل قرب قلعة "كورون" في "المورة" بإسطنبول مع خمس وثلاثين سفينة ضخمة وثمان وأربعين سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف.

أنزل "أندريا دوريا" قواته على البر وحاصر القلعة من البر والبحر وأمر بإطلاق نيران المدفعية على الأسوار. وفتحت نتيجة ذلك فجوات عميقة في أسوار القلعة، ومات من المدافعين عنها حوالي ألف وخمسمائة جندي. وأدخل دوريا الجنود من الفجوات التي فتحت من ناحية البحر، ونجح في الاستيلاء على القلعة. وبعد أن استولى دوريا على القلعة أسكن الفرنجة في القلعة الداخلية والروم المحليين في القلعة الخارجية. وترك دوريا في "كورون" الفي جندي إسباني بقيادة "فرانسو ماندوزا (*Fransuva Mandoza*)" واستولى على "باتراس (*Patras*)" و"إِينَة بَاخْتي"، والقوات التي أرادت الذهاب لمساعدة القلعة ونجدتها اجتمعت بسرعة فيالمورة. إلا أنها لم تستطع النجاح بسبب تفوق مدفعية العدو وانضمام الألبان والروم المحليين إلى جانب العدو.

ولما علم أندريا دوريا أنّ أسطولًا عثمانيًا قادمٌ بقيادة "كَمَانْكَشْ (*Kemankeş*) أحمد بَاشَا" انسحب من هذه المياه، وترك الجنود والمدافع في القلاع، ولم يُغفِل تعزيز التحصينات، ولما عادوا من حملة "آلمان" قدّم "كوينليوس (*Connelius*)" سفير النمسا إلى إسطنبول للصلح عرضًا مفاده " أن يسترد العثمانيون قلعة "كورون" في المورة وجزيرة "آرجل (*Arcel*)" شمال إفريقيا على أن يُتوّج فرديناند ملكًا على المَجَر". إلا ان إبراهيم بَاشَا ردّ على هذا العرض بقوله:

"إن الدولة العثمانية لديها العديد من القلاع الأكثر أهمية من كورون" وإن "كورون" ليست مكانا مهما ونستطيع أن نستولي على هذا المكان بالحرب إذا أردنا بل ونحرقه أيضًا".

وهكذا يتضح أن "كارل الخامس" يهدف إلى استعمال هذه القلعة غير المهمة كورقة رابحة ضد العثمانيين.

وأخيرا تم تعيين أمير سَنْجَقْسَمَنْدِرَه يحيى بَاشَازَادَه محمد بَكْ على إمارة سَنْجَقْ المورة بسبب عدم تحمل بقاء "كورون" فترة طويلة في يد العدو وكلّف بالاستيلاء على "كورون" (مارس ١٥٣٤م). كان محمد بَكْ يحاول الاستيلاء على "كورون" من ناحية، والوقيعة بين الروم والألبان وبين العدو لإفساد ما بينهم من علاقة من ناحية أخرى، وفي النهاية أمر بالقبض على من اتفقوا مع العدو من زعماء الروم والألبان وقتلهم، وهكذا نجح في إفساد العلاقة بينهم، وباتت كورون واقعة تحت الحصار، وفشل دفاع القلعة في قيامه بهجمة مرتدة رغم إمدادهم بثماني سفن، وقُتل بعضهم؛ وفتحت أسوار القلعة الخارجية ثم الداخلية عندما ضعف دفاع القلعة وطلبوا الأمان من العثمانيين.

عجز فرديناند عن مقاومة الأتراك في حملة "آلمان" فحاول أن يبرم صلحًا مع العثمانيين عملًا بوصية أخيه "كارل"، ورحب العثمانيون بطلبه ووافقوا عليه حيث بدأت في تلك الأثناء تظهر بعض المشكلات على الحدود الشرقية. واستقبل السلطان في ١٤ كانون الثاني/يناير سنة ١٥٣٣م وفد سفارة وصل إلى إسطنبول من أجل المباحثات والمفوضات. وأفاد السفير "زرالي هيرونيموس (*Zaralı Hieronimus*)" أن إمكانية عقد صلح كامل تتطلب من فرديناند أن يسلم مفاتيح قلعة ("جران (*Gran*)" ("إسترجون (*Estergon*)") دليلًا على حسن نيته، وتم إرسال مع "فيسبازيان (*Vespasien*)" ابن السفير النمساوي "رقيب الديوان"[٤٤] (رسولا من قبل السلطان) إلى "فيينا" من أجل إبلاغ فرديناند

---

(٤٤) رقيب الديوان: هو مبلّغ القرارات والأحكام المأخوذة في الديوان إلى الحكام والأمراء في رسائل أو إلى الناس بصوت مرتفع. (المترجم)

بهذا الشرط الذي اقترحه السلطان من أجل الصلح. وكتب السفير في تقريره المؤرخ بـ٢١ كانون الثاني/يناير أن السلطان سليمان يعد فرديناند بمنزلة ابنه وكل من الملكتين مثل بناته، يعني زوجة فرديناند وأخته ماريا الملكة المَجَرية الأرملة.

وبالإضافة إلى ذلك صدرت التعليمات أيضًا إلى قادة الحدود بإيقاف التصرفات العدوانية على أندريا دوريا وقائد "إسترجون" ومن جانب آخر استقبل السفير العثماني في فيينا بالمراسم، وكان هذا السفير هو أول سفير عثماني تستقبله مدينة فيينا، فرحّب به فرديناند وهو جالس على عرشه متوجّ بتاج الملك. وكان المَجَريون في أثناء الاستقبال على يمين فرديناند والبوهيميون على يساره. حتى إن شرط تسليم مفاتيح "جران" الذي اقترحه العثمانيون أخاف البوهيميين وأقلقهم، واستطاع فرديناند تهدئتهم بصعوبة، فتم التغاضي عن أمور منها: استرداد كورون، وتعديل المواد الخاصة بشؤون المَجَر من قبل "كريتي" القائم بأعمال السلطان في المَجَر، وتدخّل البابا وشارل الخامس في المعاهدة المُزمَع عقدها.

وفي ٢٩ أيار/مايو تحرك إلى إسطنبول السفير العثماني ومعه "فيسبازيان (*Vespasien*)" الذي يحمل مفاتيح "جران (*Gran*)" إلى السلطان وممثل فرديناند وماريا زوجة لايوش الثاني آخر مموك المَجَر أيضًا" ومعهم "كورنيليوس دوبليسيوس شيبر (*Cornelius Dupplicius Schepper*)"، وأحضر كورنيليوس خطابين إلى السلطان.

كانت إحدي هذه الرسائل من "كارل الخامس" وتحتوي على التوسط بين فرديناند والسلطان سليمان وعرض ترك المَجَر لأخيه، أما خطاب فرديناند فوعد فيه بأنه سيكلم "كارل الخامس" لإعادة "كورون".

بدأ الاجتماع مع سفراء النمسا في أواخر شهر أيار/مايو. وفي تلك الفترة حضر هذه الاجتماعات "كريتي" الذي كان موجودا في المَجَر وطلب إحضاره بوجه خاص من أجل المباحثات، واستقبل الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا في بادئ الأمر وفد سفارة النمسا. ووفقا لتقارير السفير قدّم الوفد إلى إبراهيم

بَاشَا مفاتيح "جران" وهدايا أرسلها فرديناند عبارة عن ألماس بقيمة ألفي دوقية وياقوتة قيمتها ضعف هذا المبلغ وقلادة مرصّعة بلؤلؤة كمثرية الشكل قيمتها نصف قيمة الألماس. وافتتحت المباحثات حيث تحمس إبراهيم بَاشَا لبدء المباحثات على الفور. وجرت المباحثات استنادا إلى تقارير السفارة على النحو الآتي:

وقد بدأ اللقاء الأول في ٢٧ أيار/مايو. ووصف السفراء في تقاريرهم حديقة قصر إبراهيم بَاشَا التي يوجد فيها التماثيل المنقولة من بُودِينْ، وذكروا أيضًا أن إبراهيم بَاشَا لديه قفطان قشيب (مرصّع بالذهب والفضة) وتحته ثوب أزرق اللون مقصب أيضًا، وأن البَاشَا معتدل القامة، أسمر البشرة، مدوّر الوجه، مفلّج الأسنان، فحيّوا إبراهيم بَاشَا، وأبلغوه بتحية فرديناند والملكة مارية، وعرّف إبراهيم بَاشَا السفراء بقوة العثمانيين الإدارية والمالية والعسكرية، وأنها جميعًا في يده، وأنه هو من يولّي المناصب والولايات، وأن الحرب والصلح والثروة في يده، ثم طلب منهم أن يصارحوه بمطالبهم بحرّية، وعلى ذلك ذكر السفير كورنيليوسأن فرديناند في حاجة إلى نصيحة إبراهيم بَاشَا وتوسطه من أجل ما تبقى من المَجَر تحت يده، وقدّم خطابات فرديناند وشارل الخامس. وبعد ذلك شرح كورنيليوس خطاب الإمبراطور بالتفصيل وأوضح أنه يعتبر السلطان أخا له، وأنه يريد أن يدخل في معاهدة صلح فرديناند، وفي حالة ترك المَجَر إلى فرديناند سوف يتم تسليم جزيرة "أرجل (*Arcel*)" إلى أصحابها الأولين، و" كورون" أيضًا إلى العثمانيين. ولما عرضوا على إبراهيم بَاشَا "كورون" و"أرجل" مقابل عرش المَجَر، قال لهم:

> "سنفتح "كورون" عنوة لا صلحًا، حيث إنّ هذا المكان ليس مهمًا للغاية، بل إننانستطيع حرق القلعة عند الضرورة، وأن السلطان منح الملك المَجَر "جون يانوش"، ولن تستطيع أي قوة في العالم أن تغير هذا القرار".

وطلب إبراهيم بَاشَا بعد هذه المحادثات الأولى انضمام "كريتي" إلى المفاوضات الأخرى التي سوف تجرى، وأبلغ "كريتي" فيما مضي السفراء النمساويين أن السلطان سوف يساند جون زابوليا بصورة مطلقة، وأن الإصرار في هذا لن يثمر، وأن مسألة "كورون" لا تقبل النقاش، لأن العثمانيين حاصروا "كورون" بستين سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف؛ وحضر في المباحثات الثانية بجانب "كريتي" كلٌ من يونس بَكْ وجلال زاده مصطفى شَلَبِي. تحدَث إبراهيم بَاشَا في هذه المباحثات الثانية عن نفسه كثيرًا فأوضح للسفراء مرة أخرى قدرته وقوته ونفوذه. ثم أوضح مسألة المَجَر والحملات التي قام بها العثمانيون وآراءه بشأن التصرفات والمواقف التي اتخذها فرديناند. وكذلك ذكر أن السلطان يرى أنَ التمسك بفرديناند وتأييده من قبل "كارل الخامس" لا طائل منه، وتحدث عن قدرة السلطان وعظمته والبلاد التي يملكها، وأبلغه أنه لن يقدم خطاب "شارلكان" إلى السلطان لئلا يثير غضب السلطان وحفيظته، وقال:

> "لو أراد "كارل" الصلح لأرسل رسولا، ويمكن توقيع هدنة لمدة ثلاثة أشهر، وإذا تم الصلح سيتوقف بربروس عن شن الهجوم علي المسيحيين في البحار في غضون هذه المدة".

واجتمع كريتي مع الصدر الأعظم عقب هذه المفاوضات وتباحثا سويًا. ونتيجةً لهذا دعا كريتي سفراء النمسا في ١١ حزيران/يونيو للمفاوضات. واستنكر كريتي في دعوته للسفراء مقولةَ شارلكان أنه نِدّ للسلطان، وأوضح أن السلطان هو وحده من يقرر مصير الصلح، وأيًا كان مايريد فإن هذا سوف يتم تنفيذه وعمله على الفور بلا قيد أو شرط.

وأخيرًا تم التوصل إلى اتفاق في نهاية المباحثات الطويلة في ٢٥ حزيران/ يونيوسنة ١٥٣٣م. والتقى السفراء بإبراهيم بَاشَا للمرة الثالثة، وفي اليوم التالي استقبلهم السلطان. وقال السفراء للسلطان:

"إن الملـك فرديناند مثـل ابنك، لذا فـإنّ ملكه ملـكك، وملكك ملكه، ولو كان يعلم أن بلاد المَجَر تحت ملكك لما شنّ عليها هجومًا حفاظًا عليها، فبما أنك أبوه وترغب بضمّها إلى سلطانك فهو يبارك لك فيها".

استعمل كورنيليوس رئيس السفراء النمساويين هذه الكلمات، وقدم التحية للسلطان بتقبيل ذيل ثوبه في مراسم استقبال رسمية، واعتذر عن عدم تقديمه الهدية، وكذلك التمس السماح بإعادة جهاز الملكة ماريا وأن يكون إبراهيم بَاشَا الذي يعتبر أخو فرديناند وكيلًا للملك في الباب الهمايوني (أي: الحكومة العثمانية) وقبل السلطان هذه المطالب، وهكذا تمخضت عن هذه المباحثات والمفاوضات هدنة مع السفراء النمساويين الذين غادرو إسطنبول في ١٤ حزيران/يونيو١٥٣٣م.